AMERICAN UNIV. IN CAIRO LIBRARY
3 8534 00979 9424

Library of
The American University
at Cairo

Happy is the man that findeth wisdom and the man that getteth understanding

PROVERBS 3-13

Ex libris datis
in memoriam
James Polk McKinney
Pittsburgh, Pennsylvania

oa. B 3046
pat S-4-2-000
1815

دكتور عبد اللطيف حمزة

PJ
7578
H26
1945

حكم قراقوش

مطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

OCLC
60506400

B1246031X
13815295

892.77
Ab31r

٨١٧
ع ج

26776

حقوق الطبع محفوظة

لشركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

١١/٤٤/٢٠٠٠

مقدمة

كثيرا ما يرث الملوك فيما يرثون رجالا يخلصون لهم ، و يعينونهم على حياطة ملكهم ، و يكونون أنفع لهم من المال والذخائر التى يتركها لهم الآباء والأجداد .

كان نور الدين محمود سلطانا على الشام فى أثناء وجود الخلافة الفاطمية فى مصر ؛ ثم لأمور سياسية ومذهبية ، حدّثت نورَ الدين نفسُه بالاستيلاء على الديار المصرية ، فبعث إليها بقائده العظيم أسد الدين شِيرَكوه ، ومعه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى ؛ وقدم شيركوه مصر ، وظفر فيها بالوزارة من يد الخليفة العاضد ، ثم مات شيركوه ، فسعى للوصول إلى الوزارة من بعده ابن أخيه صلاح الدين ، فظفر كذلك بها ؛ وأعانه على الوصول إليها رجلان خطيران : أحدهما فقيه عظيم ، هو عيسى الهكارى ؛ والآخر جندى جرىء ، هو قراقوش . ثم استقل صلاح الدين بإدارة الشئون المصرية شيئا فشيئا ، واستعان على ذلك برجل ثالث ، كان من الذخائر التى تركها له شيركوه ، هذا الرجل هو القاضى الفاضل ، فخدم الثلاثة صلاح الدين ، كلٌّ فى حدود موهبته ومقدرته ، و بذل الثلاثة جهودا متقاربة فى إقامة الدولة الأيوبية ، التى خلعت دولة الفاطميين ،

وقامت للمسلمين بهذه المهمة الكبرى فى تاريخهم الوسيط ، وهى مهمة طرد الصليبيين عن بيت المقدس .

ومعنى ذلك أن الثلاثة أخلصوا إخلاصا عظيما لدولة صلاح الدين ، بحيث يصعب علينا أن نفاضل بينهم ، أو أن ندعى أن الدولة فى أول أمرها كانت تستطيع أن تستغنى عن أحدهم فيما أحاط بها من أمور ، وألمّ بها من خطوب .

ومع ذلك لا يذكر الناس فى مصر والشرق شخصية قراقوش ، إلا مقرونة بالهزء به ، والسخرية من عقله ، إلى حدّ أنهم يتهمونه بالخبل والجنون ، ولهم فى ذلك أخبار وحكايات يتندّرون بها فى مجالسهم ، ويحوكون حولها الحكم والأمثال ؛ حتى لقد شاعت بينهم هذه العبارة « حكم قراقوش » ، يقصدون بها أن فلانا من الناس يريد أن يظلمهم أو يبطش بهم ، أو يتعسف فى حكمهم ، ويذهب فى ذلك مذهب المجانين المخبولين ، كما فعل قراقوش بالمصريين وغير المصريين !!

والواقع أن قراقوش لم يظلم ولم يتجبَّر ، ولم يبطش بأحد من المصريين أو غيرهم من المسلمين ، ولم يصدر فى عمل من أعماله عن عقل يمكن أن يوصف بالخبل أو الجنون . وأنه بَراء من هذه التهم التى كيلت له زورا وبهتانا ، وزيدَ فيها على مرور الأيام . وإنّ فى صفحة تاريخه المجيدة ، وسيرته الحميدة ، وفى عظم الجهود التى بذلها فى سبيل الدولة الجديدة ، ما ينهض دليلا على صدق ما نقول .

فما سبب هذه الأحدوثة السيئة التى اشتهرت عن قراقوش يا ترى ؟ وعلى من يقع الذنب فى هذه الصورة المشوهة ، التى مسخت تاريخه الأبيض الجميل ؟ !

سبب ذلك كله هو الأدب ، والتبعة فى ذلك كله تقع على الأدباء ، فهؤلاء

هم الذين شوهوا سمعته ، ومسخوا للناس صورته ، فإذا هى صورة تثير فى نفوسهم الضحك والازدراء ، وإذا هى تصلح أن تكون مادة للسخرية من الحكام ، وما يصدر عنهم من الأعمال .

ألاَ ما أقدر الأدباء فى كل زمان ومكان على أن يقلبوا الحق باطلا ، والباطل حقا ، والسخيف من الأعمال حسنا ، والحسن سخيفا ؛ وكم فى تاريخ البشر من رجال عظماء أهملهم الأدب ، وعفّى على آثارهم ، ورجال ليسوا بعظماء أبى الأدب إلاَّ أن ينهض بهم ، ويخلق منهم بالكذب أبطالا يتغنى الناس بمدحهم ، وهم ليسوا أهلاً لهذا المدح !

ولا تصدق هذه المقالة على رجل كما تصدق على هذا الرجل ، الذى نتحدث عنه فى هذا البحث ، وهو قراقوش . ولو علم هذا الرجل مبلغ تأثير الأدب ، وعرف مبلغ قدرته على تسجيل الحوادث ، وطبعها بالحق أو الكذب ، لما ادخر وسعا فى تملق الأدباء ، وإن كان الملق نفسه بغيضا إلى قلبه ، ولما قصَّر فى التحبُّب إليهم بالكلام حينا ، وبالمال حينا آخر ، حتى يكونوا له أبواقا تذيع فضله ، وتعلن فى الناس مجده ، وتنسج حوله هالة رائعة من البطولة ، ثم تترك للخيال الشعبى بعدئذ أن يصعد بهذه البطولة إلى درجة التقديس ، أو مايشبه التقديس ، وفى البشر استعداد دائم لأن يرتفع بعضهم ببعض إلى مثل هذه الدرجة ، ومن أجل ذلك لا نكاد نعرف دعوة دينية أو سياسية أو اجتماعية قد استغنت يوما عن الأدب والأدباء ، أو سكتت حينا عن اصطناعهم لها ، واتخاذهم أداة لنجاحها وذيوعها ، وحمل الناس جميعا على تصديقها ، والأخذ بها .

غير أن قراقوش كان جنديا لا خبرة له بالأدب ، ولا علم له بأسره ، ومبلغ

سحره ؛ وقد شاءت الأقدار أن تسلط عليه لسان أديب أريب ، هو ابن ممّاتى ، كان يشغل منصبا كبيرا فى الدولة الأيوبية ، ولأمر ما (وستعرف أنه أمر يمت إلى السياسة بصلة) كتب هذا الأديب كتابا فى هذا الجندى الصبور ، وجاء كتابه هذا سخرية مُرَّةً منه ، ومن طريقة حكمه ، وأقبل الخاصة والعامة على قراءة الكتاب ، وأُخذوا يومئذ بقوة سحره ، وشدة أسره ؛ وذهبت العامة تعتقد الشر والخبَل فى هذا الرجل ، والرجل نفسه بعيد عن كل هذه التهم ؛ ولكن ما أصدَق الذى يقول : « لا كرامة لنبى فى قومه » .

وانتقل الكتاب نفسه من مصر إلى غير مصر من أقطار الإسلام ، واتخذ لنفسه فى كل قطر منها صورة تتفق مع ميول هذا القطر وظروفه ، وتختلف عن صورته فى الأقطار الأخرى ، وأوشك الناس فى جميع تلك البلاد أن ينسوا تاريخ الأمير العظيم قراقوش ، وأصبحوا لايكادون يذكرون غير كتاب « الفاشوش » ، وهو الكتاب الذى وضعه هذا الأديب الداهية فى ذمّه والغض منه .

وفى هذا الكتاب الذى بين يديك الآن ، يقف الأمير قراقوش فى ناحية ، ويقف الأديب الذى ظلمه وشوه سمعته فى ناحية ثانية ، ويحتكم الأمير المظلوم إلى التاريخ ، فينظر التاريخ نظرة عادلة فى قضيته ، ويعمد فى الفحص عن هذه القضية إلى طريقته السهلة الواضحة ، وهى أن يستعرض صفحته ، ويستقرئ حوادثه ، ويمحِّص وقائعه ، وأخيرا يصدر الحكم الذى ينْصفه به .

وبعد ، فنحن نعلم أن دراسة هذا الكتاب الذى نتعرض له الآن ، كدراسة غيره من الكتب التى على شاكلته ، تقتضينا النظر إليه من نواح ثلاث :

أولاها — الناحية العلمية ، ونعنى بها نشر الكتاب نشرا علميا صحيحا .

والثانية — الناحية التاريخية ، ونعنى بها تمحيص الظروف التاريخية التى أحاطت به .

والثالثة — الناحية الأدبية ، ونعنى بها البحث فى الكتاب ، من ناحية أسلوبه وألفاظه ، ونوع الأدب الذى يشتمل عليه .

فأما الناحية العلمية الخالصة (وهى نشر الكتاب) ، فيؤسفنا هنا أن نقول إننا لم نعثر منه على نسخ كثيرة ، تتيح لنا فرصة العمل العلمى على الوجه الصحيح .

وليس عندنا بمصر من هذا الكتاب إلا صورة أو صورتان لنسخة واحدة نسبت إلى إمام من أئمة القرن التاسع الهجرى ، هو الشيخ جلال الدين السيوطى ، وذلك باسم كتاب « الفاشوش » وهو الاسم الذى اختاره « ابن مماتى » لكتابه فى القرن السادس الهجرى ، أى قبل السيوطى بثلاثة قرون[١] .

غير أن أستاذا باحثا تعرض قبلنا لنشر الكتاب ، وعثر منه على ثلاث نسخ : منها النسخة التى زعم أنها لابن مَمَّاتى فى القرن السادس ، ومنها النسخة التى زعم أنها للسيوطى فى القرن التاسع ، ثم نسخة عنوانها : « الطراز المنقوش ، فى حكم السلطان قراقوش » وهى متأخرة زمنا عن النسختين السابقتين[٢] .

والناظر فى هذه النسخ الثلاث يرى أنها تشترك فى قليل من النوادر ، وتنفرد كل واحدة منها بأكثر النوادر ، وقد رأينا نحن أن ننقل هذه النسخ ،

---

(١) انظر نسختين مخطوطتين من كتاب السيوطى الأولى ضمن مجاميع برقم ١٩٤ ، والثانية ضمن مجاميع برقم ٤١٦ ، وذلك بدار الكتب المصرية بالقاهرة .

(٢) انظر مجلة Mission Archéologique Française au Caire VI. P. 447 بمكتبة دار الآثار العربية .

معتمدين فى ذلك على الصور الموجودة بدار الكتب المصرية من جهة ، وعلى الجهد الذى بذله المستشرق « كازانوفا » من جهة ثانية .

وأما الناحية التاريخية فقد عنينا بها عناية خاصة . فكان علينا أولا أن نبحث عن شخصية الأمير بهاء الدين قراقوش ، وكان علينا ثانيا أن نترجم لابن مَمَّاتى صاحب كتاب الفاشوش . ثم كان علينا بعدُ ، أن نستعرض الظروف السياسية التى أحاطت بهذا الكتاب الذى جمع بينهما مستندين فى كل ذلك إلى أوثق المراجع التاريخية للعصر الذى وُجدا فيه .

وأما الناحية الأدبية ، فالكتاب كما يرى القارئ مكتوب بلغة عامية أو شعبية . ولذا قصرنا البحث فى هذه الناحية على نوع الأدب الذى اشتمل عليه الكتاب ، وهذا النوع هو السخرية .

غير أنه لبيان نوع السخرية التى ظهرت فى كتاب الفاشوش ، لم نر بُدا من الكلام فى أنواع السخرية من حيث هى عامة ، ثم الكلام فى السخرية التى ظهرت فى الأدب العربى خاصة ، وانتقلنا من ذلك إلى الكلام عن السخرية فى أدب ابن مماتى بوجه أخص ، وهنا ينتهى البحث .

تلك إذن هى الخطة التى سلكناها فى هذا الكتاب ؛ وهذه طائفة من الأغراض التى من أجلها ننشر قصص هذا الكاتب المصرى القديم ابن مماتى . والله نسأل أن يسدّ هذا البحث فراغا ولو بسيطا فى تاريخ أدبنا المصرى ، فى القرون الوسطى . والقارئ بعد مرجوٌّ فى أن يعفو عن زلة يجدها ، أو نقص قد يقع عليه .

عبد اللطيف حمزة

قراقوش (١)

لا تكاد مصادر التاريخ تذكر شيئا واضحا عن نشأة هذا الرجل ؛ إذ كل ما يُعرف عن نشأته أنه فتى رومى خَصِيّ ، ولد ببلاد آسيا الصغرى ، وكبر بها ، ثم فى ظروف لا حظَّ لها من وضوح ، اتصل هذا الفتى بضابط كبير ، هو أسد الدين شيركوه ، وكان هذا الضابط يعمل هو وأخوه نجم الدين أيوب فى خدمة ملك عظيم من آل زنكى ، هو عماد الدين المعروف بالشهيد . ثم مات هذا الملك ، وخلفه على حكم الشام ولده نور الدين محمود ، فقرب هذين الضابطين الأخوين ، وانتفع بهما انتفاعا عظيما .

وفى دمشق تسمى الفتى الخصى باسم بهاء الدين بن عبد الله الأسدى ؛ فأما تسميته بابن عبد الله ، فكناية عن أنه لا يُعرف له أب مسلم ؛ وأما وصفه بالأسدى ، فنسبة إلى أسد الدين شيركوه ، الذى لعله اشترى هذا الفتى بماله ، وتملكه ثم أعتقه ، أو لعله نسبه لنفسه لأن الفتى أسلم على يده ؛ والولاء كان فى العرب بطرق ، من أهمها هاتان الطريقتان ، وكثيرا مايكون بهما معا . ثم لما مات

---

(١) قراقوش معناه : النسر الأسود ، وهو لفظ تركى مكون من « قره » بمعنى أسود ، و « قوش » بمعنى طائر .

أسد الدين ، واتصل الفتى بخدمة ابن أخيه صلاح الدين ، صار يدعى بهاء الدين ابن عبد الله الأسدى الناصرى .

والظاهر أن رجال الجيش فى دمشق كانوا قد أَنِسوا من هذا الفتى الرومى رشدا ، ووجدوا فى أخلاقه ميلا إلى الشدة والصلابة ، والقدرة على مواصلة العمل ، فأدنوه منهم ، ومنحوه الرتب العسكرية التي شجعته على خدمتهم ، وضربوا به المثل فى الصبر والجلد والمثابرة ، فما لبث بهاء الدين قراقوش أن أصبح أميرا من أمراء الجيش ، الذى كان يرأسه أسد الدين شيركوه ، وهو الجيش الذى دخل مصر يوم دُعِىَ نور الدين إلى التدخل فى شئونها ، وإلى تهدئة الأحوال بها ، ثم إلى ضمها جملة إلى التاج الأتابكى ؛ فذهب إليها أسد الدين ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، وبصحبتهما ذلك الفتى الرومى ، الذى شهد بعينه انهيار الدولة الفاطمية ، وقيام الدولة الأيوبية ، وكان دعامة من الدعائم التى قامت عليها هذه الدولة الفتية الناشئة .

قراقوش فى حراسة القصر الفاطمى

١١٦٨

وفى عام ٥٦٤ هجرية اضطرب رجال القصر الفاطمى، وعمّهم الذعر والفزع، وسعى بينهم من حذّرهم عاقبة الوزارة الجديدة، وهى وزارة صلاح الدين، ووقفهم على نيات هذا الرجل الخطير، وأقلها يومئذ تفكيره فى إزالة الدعوة الفاطمية، وإقامة الدعوة العباسية.

وإنه لأمرٌ خطير حقا، أن تزول دولة وتقوم دولة، أو أن يسقط عرش ويحل محله عرش، ومن أجله دُبرت المؤامرات فى داخل القصر وخارجه، وأخذت هذه المؤامرات تظهر واحدة فواحدة، وكانت أولاها مؤامرة داخل القصر الفاطمى، دبرها خصى أسود اسمه « المؤتمن »، أراد بها إسقاط صلاح الدين، والقضاء على جنده وعلى من أتوا معه من أهله وعشيرته. وكاد النجاح يكتب لهذه المؤامرة لولا ذكاء القاضى الفاضل من ناحية، ولولا سيف الملك شمس الدولة ابن أيوب، وهو الأخ الأكبر لصلاح الدين، من ناحية ثانية.

فى هذه الآونة فكر المؤتمن ورجاله أن يملئوا أيديهم من ذخائر القصر الفاطمى، التى توشك أن تضيع منهم إلى الأبد، وكان من أغراضهم فى ذلك

أن يستعينوا ببعض ثمنها على تشجيع الجند ، وتوفير المال اللازم لرجال المؤامرة .

عرف ذلك الوزير صلاح الدين ، فلم يُمض وقتا طويلا حتى هداه تفكيره إلى خادمه الأمين ، وصديقه الغيور ، بهاء الدين قراقوش ، فجعله متولى القصر الفاطمى ، يحرسه ويصون ذخائره ، فقام على حراسته بعين لم تمكن أحدا من أولئك المتآمرين من أخذ شيء من ذخائره ، على كثرتها ودقتها وسهولة حملها وإمكان إخفائها .

ثم مات الخليفة الفاطمى ، وكان صلاح الدين قد انتهى من قطع اسمه من الخطبة ، وذكر اسم الخليفة العباسى بدلا منه ، فَرِيعَ مَنْ بالقصر ، وتولاهم الخوف والفزع ، وظهرت عليهم أمارات الوحشة والانكسار . فدعا السلطان الملك الناصر صلاح الدين صديقه بهاء الدين قراقوش ، وزوده أوامر لمواجهة الحالة الجديدة ، منها أن تزداد عنايته بالقصر ، فلا يخرج منه شيء أو يدخل فيه شيء إلا بإذنه ، ومنها أن يضاعف الحيطة لأهل الخليفة وذوى قرابته ، وأن يخرجهم من القصر إلى مكان عيَّنه له ، ترسل إليهم فيه كسوتهم وأزوادهم . فنُقِلوا إلى « دار بَرْجوان » ، وهى دار كبيرة واسعة بالحارة المسماة بهذا الاسم من حارات القاهرة . ومن تلك الأوامر التى تلقاها الأمير بهاء الدين قراقوش ، أن يعزل الرجال فى القصر عن النساء ، لئلا يتناسلوا ويكثروا ، ويمتد ظلهم ، فيساعد ذلك على أن يعيدوا الدولة الفاطمية . قال : «وأما الجوارى والعبيد ، فلك أيها الأمير أن تطلقهم ، ولك أن توزعهم ، ولك أن تطلق البيع فيمن بقى منهم بعد ذلك كله ، حتى لا يزدحم بهم القصر » ، بذلك ختم السلطان الملك الناصر حديثه الذى ألقاه على صديقه ، ثم تركه يعود إلى القصر ، ليتولى بنفسه تنفيذ الأمر .

فعاد الأمير إلى القصر ، وفتح عينيه يومئذ على كنوز ، يضيق بوصفها مؤلَّف صغير كهذا الذى تقرؤه ، فمن ملابس وجواهر ، إلى قلائد ودرر ، إلى ياقوت وزمرد ، إلى مصوغات ذهبية وأوان فضية ، ومنسوجات مغربية ، و « صوانٍ » صينية ، وأخرى منقوشة بالميناء ، ومن قطع ثمينة من الخزف ، إلى تماثيل عظيمة من البلّور ، على هيئة الوحش أو الطير ، إلى حلل وثياب ، إلى طيب وطرائف ، إلى عقود من الزبرجد والجوهر ، الذى لا نظير له فى العالم كله ، إلى تحف مصنوعة من خشب الصندل والعود والآبُنُوس ، إلى بسط خيطت بالذهب والفضة ، إلى ستائر وأغطية من الديباج ، قد نسجت فيها الرسوم الفاخرة ، والصور الرائعة ، إلى كئوس من حجر غال يقال له « حجر اليصْب » ، قالوا إن من خواصه الوقاية من السم ، وكانت هذه الكئوس تصنع للأمراء والملوك ، لتوضع فيها الأشربة ، فيتغير لونها إن كان بها شىء من السم . ذلك كله عدا الأسلحة والسروج ، والخيم والبنود .

وأما العرش الفاطمى نفسه ، فكان مرصعا بالدر والجوهر ، وكانت عتباته مغطاة بالذهب الخالص .

لقد وضعتَ يا قرقوش يدك على كنوز ليس لها نظير فى العالم أجمع ، فاحرص على هذه النفائس كلها ، وضاعف عنايتك بها ، حتى تصير إلى صاحب الحق الشرعى فيها ، وهو مولاك السلطان صلاح الدين .

أما خزانة الكتب ، وقد ذهب المؤرخون أيضا إلى أنه لم يكن فى جميع بلاد الإسلام أعظم منها ، فقد كانت بالقصر مرتبة مفهرسة ، فقيل يوما للأمير بهاء الدين قراقوش : « إن هذه الكتب قد عاث فيها العُث ، ولا بد من تهويتها

وإخراجها من الرفوف إلى أرض الخزانة » . وكان قراقوش جنديا لا خبرة له بالكتب، ولادراية له بأسفار الأدب ، فأخرجها ، ثم ظهر أن هذا الطلب إنما كان حيلة مدبرة من تجار الكتب ، يريدون بها تفريقها ، وخلط أنواعها ، فتم ذلك ، واختلطت كتب الأدب بكتب النجوم ، وكتب الشرع بكتب المنطق ، وكتب الطب بكتب الهندسة ، والكتب المجهولة بالكتب المشهورة .

وكان فى خزانة الكتب مؤلفات يشتمل كل كتاب منها على خمسين أو ستين جزءا مجلدا ، إذا فقد منها جزء لا يُخْلَف أبدا ، ففرّق الدلاّلون هذه الأجزاء ، لتقل قيمة الكتب ، وتباع بأخس الأثمان ، هذا مع أنهم كانوا يعرفون مواضع أجزائها ، ويستطيعون جمع شملها بعد شرائها .

وكان الأمير قد استأذن مولاه صلاح الدين فى بيع هذه الكتب الهائلة ، فأذن له السلطان فى بيعها ، ولم يظهر حرصه عليها ، لما زعم يومئذ من اشتمال أكثرها على كتب فى عقائد الشيعة الفاسدة ، وآرائهم الدينية المتطرفة ، وهو إنما أتى إلى مصر لأغراض من أهمها محاربة هذه العقائد والآراء ، حتى لا يبقى فى مصر من يميل إليها ، أو يأبه لها .

فعمل الأمير بأمر مولاه فى الكتب ، كما عمل بأمره فى غير الكتب ، وجعل لبيعها فى القصر يومين من كل أسبوع ، واستمر البيع فيها وفى ذخائر القصر أكثر من عشر سنين .

وكذلك نجح الأمير قراقوش فى القيام بمهمته ، فحافظ كل المحافظة على نفائس القصر وذخائره ، وبذل عنايته فى صونها ، وكان أميناً كل الأمانة فى بيعها ، وجمع المال الحاصل من ثمنها ، وإذا صح أنه غلب على أمره فى شىء

من ذلك كله ، فهو « خزانة الكتب » ، وله فى ذلك عذران واضحان : أولهما جهله بقيمة هذه الكتب ، وثانيهما خوف صلاح الدين من هذه المكتبة ، وإساءته الظن بها إساءة جعلته لا يهمه من أمرها أكثر من جمع المال الحاصل من بيعها .

فاحتال فى اقتناء هذه المكتبة ، وفى انتهاز هذه الفرصة النادرة ، كثيرون من التجار وأهل الأدب ، وكان نصيب القاضى الفاضل منها نصيب الأسد ، فقيل إنه ظفر يومئذ بألوف من الكتب ، أسس بها مدرسة فخمة سماها باسمه ، وخدم بها مذهب السنة ، الذى انهارت بسببه دولة ، وقامت له دولة ، وأتى صلاح الدين كما قلنا لنشره ، والقضاء على جميع المذاهب التى كانت تناهضه .

قراقوش منشىء الأعمال الحربية

كان بين الحكومتين الفاطمية والأيوبية فروق من وجوه ، يمكن أن ترد كلها إلى سبب واحد ، هو أن حكومة الفاطميين كانت حكومة مدنية ، أما حكومة السلطان صلاح الدين فكانت حكومة عسكرية ، عنيت الأولى منهما بنظام الدواوين ، واستكثرت فيها من الكتاب والموظفين ، على حين اكتفت الثانية بعدد يسير من هذه الدواوين ، ومن الموظفين ؛ واستأثرت الحرب بجزء عظيم من عناية الدولة الأيوبية ، وذلك أن مهمة هذه الدولة انحصرت يومئذ فى شيئين هما : التغلب على مذهب الشيعة فى داخل مصر ، ثم إحراز النصر النهائى على الفرنج و إجلائهم عن القدس .

من أجل ذلك احتاج السلطان صلاح الدين إلى منشآت حربية ومدنية ، كان من أهمها إذ ذاك إقامة الجسور ، وتطهير الترع ، وتشييد القلاع والأسوار المحيطة بالبلاد ، لتقيها شر الغارات التى قد تأتى إليها من جانب الفرنج تارة ، والشيعة المنبثين فى بقاع كثيرة من العالم الإسلامى تارة أخرى .

ومن لهذه المشروعات الحربية العظيمة غير الأمير بهاء الدين قراقوش ، يبذل

فيها جهده ، وتعينه على البذل طبيعة له عرفت بالصبر و بالجد ، وعزيمة يوشك ألا يكون لها حدّ ، ثم مواهب هندسية سرعان ما كشف عنها صلاح الدين ، وأفاد منها فى حر و به فائدة ليس إلى إنكارها من سبيل !

ولعل أول ما أقام الأمير من ذلك قلعة الجبل ؛ بناها على قطعة مرتفعة تنفصل من جبل المقطم ، وتشرف منها على القاهرة كلها . وتصلح بذلك أن تكون وَكْرًا للنسر الإسلامى العظيم صلاح الدين ، يقيم بها بعض أيامه ، و يدير منها حركة الحرب ، التي زحزح بها أعداءه من القدس . ثم لما مات السلطان صلاح الدين سكن القلعة من بعده ابنه العزيز ، ثم فى عهد الملك الكامل من ملوك بنى أيوب ، تم بناء هذه القلعة العظيمة ، واتخذت منذ ذلك اليوم مقرا للحكومة ، واستمر الحال على ذلك إلى زمن المغفور له محمد على باشا . ثم لم يكن إلا فى عهد إسماعيل أن انتقلت دواوين الحكومة إلى دور أخرى وسط مدينة القاهرة .

غير أنه ما كاد الأمير قراقوش يفرغ من بناء قلعة الجبل ، حتى اشتغل فى بناء قلعة أخرى يقال لها قلعة المقس ، وهى برج كبير بناه الأمير على النيل . و بنى بالقرب منه أبراجا أخرى على النمط الفرنجى لا النمط البيزنطى ، وسبب ذلك فيما يظهر ، أن صلاح الدين اختلط فى أثناء الحروب الصليبية بالفرنج المقيمين بالشرق فى أثناء هذه الحروب ، وعرف كيف يبنون قلاعهم وحصونهم ، ووازن بينها و بين حصون الفاطميين وقلاعهم ، فظهر له أن حصون الفرنج أصلح من الوجهة الحربية . ثم ما كاد الأمير يستريح أيضا من بناء هذه الأبراج والحصون ، حتى شغل نفسه بمشروع آخر ، هو إقامة سور عظيم على حافة الصحراء الغربية ، قطع له الحجارة من الأهرام الصغيرة ، و بناه تجاه الجيزة على مسافة بعيدة منها .

ولكن أحسبتَ أنك فرغت من متاعبك أيها الأمير ؟ أم حسبت أنه قد آن لك أن تخلد إلى الراحة من هذا العناء الكبير ؟ أو أنك تستطيع الآن أن تنعم بفترة يهدأ فيها جسمك من هذه الحركة التى لا تعرف السكون ؟ إن لك أكثر من عامين تصل فيهما ليلك بنهارك فى القيام بنصيبك من عبء الحرب ، فقد بدأت هذا العمل منذ عام ٥٦٧ هـ ، وأنت الآن فى عام ٥٦٩ هـ ، والسلطان العظيم يأمرك أن تقوم له بعمل آخر ، ربما يرى أن له من الأهمية الحربية ما يربو على الأعمال السابقة كلها . إنه يأمرك أيها الأمير أن تقيم له سورا يحيط بمصر والقاهرة ، ويصل كل هذه القلاع بعضها ببعض ، فاعمل أيها الأمير فى هذا السور ، وقدِّ له الحجارة من المقطم والأهرام ، واحشد للبناء من شئت من أسرى الفرنج ، وما أكثر ما جلب لك مولاك من هؤلاء الأسرى ، فى الحروب الكثيرة التى تدور الآن بينه وبين أولئك القوم !

أقبلَ الأمير قراقوش على بناء السور ، وبنى فيه جامعا ، وحفر فى القلعة بئرا . قالوا : « وكانت هذه البئر من عجائب الأبنية ، يدور البقر من أعلاها ، وينقل الماء من وسطها ، وتدور أبقار أخرى فى وسطها ، فينقل الماء من أسفلها ، وجميع ذلك حجر منحوت ، ليس فيه بناء . وقيل إن أرض هذه البئر مسامتة لأرض بركة الفيل ، وأن ماءها كان عذبا فى أول الأمر ، ثم أراد قراقوش الزيادة فى مائها ، فوسعها ، فخرجت منها عين مالحة غيرت حلاوتها » .

وكان هذا السور الذى بناه قراقوش هو ثالث الأسوار التى أحاطت بالقاهرة إلى عهده ، أما الأول فكان قد بناه القائد الرومى جوهر الصقلى ؛ وأما الثانى فكان قد بناه الوزير أمير الجيوش بدر الجمالى الفاطمى . وكان هذان السوران

الأولان قد بنيا من اللَّبِن ؛ أما الثالث فقد بناه الأمير قراقوش من الحجارة ووقف عند قلعة المقس ، لم يستطع أن يصلها بمصر .

عندذ لك كتب القاضى الفاضل إلى السلطان صلاح الدين رسالة طويلة ، منها قوله : « والله يحيي المولى حتى يستدير بالبلدين نطاقه ، ويمتد عليهما رُواقه ، فما عقيلة كان معصمها ليُترك بغير سوار ، ولا خَصْرها ليتحلى بغير مِنطقه نُضار . والآن قد استقرت خواطر الناس ، وأمنوا من يد تتخطف ، ومجرم يقدم ولا يتوقف . . . » . فلما قرأ السلطان الرسالة سُرّ بها وبخادمه بهاء الدين قراقوش ، وعلم أن الله تعالى يريد بدولته خيرا ، إذ قيض لها مثله ومثل وزيره القاضى الفاضل .

بذلك أصبحت لقراقوش خبرة بمثل هذه الأعمال الحربية الجليلة . وكان السلطان كلما احتاج إلى عمارة قلعة ، أو تجديد حصن ، أو تقوية جسر ، أو إقامة سور ، أو بناء برج ، عهد إليه فى هذا العمل ، فقام به على خير طريقة .

ولعل آخر ماقام به من ذلك عمارته لسور عكاء عام ٥٨٥ هـ ، وذلك فى أثناء المحنة التى مرت به وبالمسلمين ، وهى المحنة التى نريد أن نستعرضها هنا بالقدر الذى يتصل بشخص الأمير .

قراقوش الجندى فى حصار عكاء

كان قراقوش جنديا له شخصيته البارزة فى الجيش ، غير أنه كان ذا ميول حربية هندسية ، عرفها السلطان صلاح الدين ، فكان يؤثر أن يتركه لهذه الأعمال التى ذكرنا لك طرفا منها ، ويذهب هو إلى القتال ومعه قواده وأبطاله ، ممن كانوا يحسنون الكر والفر فى الميدان . من أجل ذلك لم نسمع عن بهاء الدين قراقوش أنه اشترك فى حرب للسلطان ، إلا حين كان يدعوه السلطان إلى إقامة الأسوار ونحوها ؛ فإذ ذاك لايجد الأمير بدًا من الذهاب معه .

ومضت السنون ، وانتصر السلطان صلاح الدين على الفرنج ، واستولى منهم على بيت المقدس ، ثم تقدم فى فتوحه ، حتى يسّر الله له فتح حصن من أكبر حصون الفرنج ، وهو حصن عكاء ، فملك السلطان هذا الحصن المنيع ، ولكن بعد أن دفع فيه الثمن غاليا ، من المال والأنفس ، واستشهد فى ذلك اليوم أخ للفقيه عيسى الهكارى ، وأتى الناس يعزونه ، فأنكر عليهم ذلك وقال : « هذا يوم الهناء ، لا يوم العزاء ! » .

وكان سور المدينة قد تهدم من شدة القتال ، فرأى السلطان أن يترك المدينة

والحصن للأمير قراقوش ، ويذهب هو لامتلاك الحصون الأخرى ، قبل أن يجمع الفرنج شملهم ، أو يأتيهم المدد من ملوكهم فيما وراء البحر . فبقى الأمير فى هذه المدينة ، و بقيت معه حامية ليست بالكبيرة ، وسهر فى إقامة ماتهدم من السور ، وعكف على عمله هذا بهمة لاتعرف الملل ، وعزيمة لايلحقها خوَر ، وهو واثق من أن الله الذى وهب للمسلمين النصر حتى ملكوا هذا الحصن ، لابد أن ينصرهم ، و يساعدهم على قهر الإفرنج ، حتى لايجدوا بدا من الجلاء عن الشرق .

ولكن حدث مالم يكن فى الحسبان ؛ حدث أن الفرنج بعد انهزامهم اجتمعوا فى حصن آخر من حصونهم ، واتفقوا على أن يذهبوا بجموعهم إلى عكاء ، حيث يظلون محاصرين لهذه المدينة ، أو يأتيهم المدد الذى طلبوه من بلادهم . وكان قصد الفرنج من ذلك أن يشغلوا بهذا الحصار بال المسلمين ، فقد أصبح بينهم و بين أن يطردوا الفرنج من البلاد نهائيا ، أن يأخذ المسلمون منهم بضعة حصون كانت لهم على الساحل .

فضُرب الحصار على عكاء عامين ، ذاق فيهما الأمير والمسلمون معه الأمرَّيْن ، بل ذاقوا هنالك أقسى ماعرفته المحنة الصليبية من ألم ، وتحملوا فيهما أشق مامر بها من جهد ونصب ، حتى لقد نفدت الأقوات من المدينة ، وكان على المسلمين أن يمُدوا إخوانهم فيها بالطعام و بالميرة ، ولكن الفرنج كانوا كثيرا مايحولون بينهم و بين هذا العمل ، الذى تتوقف عليه حياة المسلمين فى هذه المدينة البائسة . فانتشر فيهم الجوع ، وفغر الوباء فاه ، ليبتلع الجند الذين أصبحوا ولا قدرة لهم على مشقة الحرب ، والعدو مع ذلك يمطرهم وابلا من عذابه خارج الحصن .

كل ذلك والأمير بهاء الدين قراقوش يصبر و يتجلد ، وكلما فكر جنده

فى التسليم للعدو منّاهم وأمّلهم وشد عزائمهم ، وما يزال بهم حتى يرجعوا عن هذا العزم ، و يتقدموا شجعانا كعادتهم لإخافة هذا الخصم .

ومع ذلك شاءت الأقدار أن تخذل هذا الأمير الصابر ، فى الدفاع عن نفسه وشرفه وجنده فى هذه المحنة القاسية . فأتى المدد إلى الفرنج من ملوكهم فيما وراء البحر ، ووقف ملوك الصليبيين صفا واحدا أمام جيش صلاح الدين ، فوهن المسلمون يومئذ ، ودخل الملوك المسيحيون عكاء ، وانهالوا على أهل المدينة نهبا وذبحا وأسرا ، وكان الأمير نفسه ممن أسروا ، و بقى فى الأسر حتى أُفرج عنه حين عقد الصلح . وكان يوم الإفراج عنه يوم سرور عظيم ؛ إذ فرح به السلطان الفرح كله ، لما كان له عليه وعلى الإسلام كله من الحقوق ، فبقى الأمير إلى جانب السلطان ، لم يفارقه حتى فارق السلطان هذه الدنيا .

قراقوش يحمي عرش العزيز

مات السلطان صلاح الدين ، وتوزع الملكَ أولادُه من بعده ؛ فكانت مصر من نصيب ولده « العزيز عثمان » ، وكانت دمشق وما حولها من نصيب ولده « الأفضل » ، وكانت حلب وما يليها مُلكا لابنه « الظاهر » ، وكانت بلاد الجزيرة والرُّها وغيرها من البلاد الشرقية من نصيب عمهم الملك العادل .

والعجيب أن هذه الدولة الإسلامية الكبيرة التى كانت كلها في قبضة السلطان العظيم صلاح الدين ، انقسمت على نفسها ، ودبت الوحشة بين ملوكها ، ولولا ما كان يتهددهم من خطر الصليبيين ، وهجومهم عليهم المرة بعد المرة ، مما كان يؤلف بين قلوبهم ، ويجعلهم قوة واحدة ويدا واحدة لدرء هذا الخطر ، لانهارت دولتهم ، وذهبت جهود أبيهم صلاح الدين مع الريح .

وكان من سوء حظ «الأفضل» أن وجد إلى جانبه وزير نَكِدٌ على ما اشتهر به من الفضل والأدب وسعة العلم ؛ ذلك الوزير هو ضياء الدين بن الأثير الجزَرى ، صاحب كتاب « المثل السائر » ، وكان هذا الوزير الأديب رجلا فائل الرأى ، بغيضا إلى الناس ، حتى قال فيه الشاعر :

متى أرى وزيركم   وما له من وَزَر
يقلعه الله فـذا   أوان قلع الجزَرِ ؟!

وبسبب هذا الوزير حدث خلاف كبير بين الأفضل والعزيز ، وضَرِىَ الشر بينهما ، وفر كبار الأمراء فى جيش الأفضل من دمشق إلى مصر ، فرحب العزيز بهم ، وعول فى أموره عليهم . وفرغ الأفضل فى دمشق للذة واللهو ، وترك الشأن فيها للوزير ، فأتى يوما إلى العزيز من أخبره بخبر الأفضل كله ، وبأن الجزَرى غَلب فى دمشق على أمره ، وأنه أفسد أحوال الدولة إفسادا لاتصلح بعده ، ولم يكفه ذلك حتى حمل الأفضل على مقاطعة إخوته ، وحسَّن له طرد القدماء من أمراء والده ، وزين له الدخول فى حرب مع أخيه العزيز ، فأصبح على العزيز إذن أن يدرك البلاد ، وإلا حدث فيها من الاختلال ما لا يمكن دفعه .

وذهب العزيز بجيشه إلى دمشق ، وأناب عنه الأمير بهاء الدين قراقوش فى حكم مصر . ولم تكن هذه أول مرة ناب فيها الأمير بهاء الدين ، فقد سبق أن قام بهذه النيابة أيضا فى حياة صلاح الدين ، ومعنى ذلك أنه كان أهلا لهذه الثقة منذ نشأته ، فلم يكن غريبا أن يثق به العزيز ، وأن يترك له البلاد أحوج ماتكون إلى وجوده بشخصه ، فى وقت نظر فيه العقلاء عن كثب ، فإذا نارٌ تحت رماد ملتهب ، وإذا جيش العزيز على أبواب ثورة تحبس نفسها فى صدور الجند ، إلى أن يحين الوقت الذى ينفجر فيه انفجارا لايؤمَن شره .

ولم يشعر الملك الأفضل يومًا مَا إلا وجند العزيز محيطة به ، فلما جمع أصحابه أشار عليه الجزرى أن يعتصم بعمه العادل ، فأتى العادل يومئذ إلى دمشق وشفع للأفضل عند العزيز ، فاستحى العزيز من عمه ، وصالح أخاه ، وعاد إلى مصر .

ومضى على هذه الحادثة وقت غير طويل ، ثم عاد الخلاف بينهما من جديد ، وكان من أسبابه هذه المرة ظهور الفتنة التى أشرنا إليها ، فقد حدث نزاع عظيم بين فرقتين عظيمتين فى جيش العزيز ، هما فرقة الصلاحية (الذين هم مماليك أبيه صلاح الدين) ، وفرقة الأسدية (الذين هم مماليك عمه أسد الدين) ، واتهم العزيز يومئذ بأنه كان يقدّم الصلاحية على الأسدية ، فنفر هؤلاء من الملك العزيز ، وانتهز العادل هذه الفرصة لتوسيع الخلاف بين الفريقين المتنازعين ، كما أخذ ينتهز الفرصة من قبل للوقيعة بين الملكين الأخوين ؛ وكان خليقا به أن يكون بين هذين الأخوين كما قال القاضى الفاضل يوما للملك الأفضل : « فإنى لا أدخل بينكما إلا كالنسيم بين الأغصان ، يعطف بعضها على بعض ، أو المِرْوَد بين الأجفان ، يرد إليها ما فقدته من النور أو الغَمض » ؛ ولكن الطمع والشره يفسدان على المرء حياته دائما ، ويحولان بينه وبين العمل الذى يتفق ومكانته ، فقد كان العادل يطمع يومئذ فى ملك مصر ودمشق ، يرى نفسه أحق بهما من هذين الملكين الشابين من أولاد أخيه ، ويعلم أن أحدهما لن يصفوَ له ، حتى يفسد الجو بين الأخوين .

وكان الأفضل ملكا طيبا لين القلب ، وكان به غفلة لا تليق بالملوك ، وكان العزيز على ذكائه وشجاعته يحسن الظن بعمه أول الأمر ، حتى أُخذ عليه هذا السلوك . وأما العادل فكان ملكا عظيم الدهاء بطبعه ، ثم زاده اختلاطه بملك الإنجليز « ريتشارد » فى الحروب الصليبية مكرا على مكر ؛ فأعمل هذا المكر كله فى توسيع الخلاف القائم بين الأفضل والعزيز ، ونجحت حِيَلُه فى التفرقة بينهما ، حتى عزم العزيز مرة أخرى على قصد دمشق ، وكان قبل خروجه إليها قد استمال إليه أخاه الظاهر بحلب ، فلحق به الظاهر هناك ، فلما رأى العادل أنه لا قبل له ولا

للأفضل بهما ، عمد إلى حيلة من حيله لإضعاف الجيش ، فكاتب العزيز سرا يخوفه من الأسدية ، وكاتب الأسدية سرا يخوفهم من العزيز ، وكان زعيم الأسدية إذ ذاك رجلا يقال له حسام الدين أبو الهيجاء السمين ، وكان هذا الخبيث واليا على القدس من قِبَل العزيز ، ثم عزله العزيز وولّى مكانه غيره ، فأسرّها فى نفسه ونوى الغدر بصاحبه .

ووصلت كتب العادل إلى الأسدية ، وبيّت الجميع سوء النية ، فاتفقوا على أن يكتبوا لإخوانهم فى القاهرة لكى يحولوا بين العزيز ودخول مصر عند عودته إليها ، وبذلك يصبح العزيز نفسه بين نارين : فاما أن يسلم نفسه للأسدية ، وإما أن يلوذ بعمه العادل . كل ذلك والعزيز مقيم فى معسكره بقرب دمشق ، يرتب الجند ، ويشرف على نظام الجيش ؛ وإذا بأبى الهيجاء السمين ينسحب فجأة من الميدان ، ويقود وراءه جندا كاملى العدد والعُدة ، ومن جند هذا الرجل إذ ذاك كان يتألف معظم الجيش ، ففتّ ذلك فى عضد العزيز ، وخَضَد من شوكته وأخمد من عزمه ، وفل من غربه ، حتى اضطر فى صباح اليوم التالى أن يفكر فى النجاة بنفسه ، والعودة إلى مقر حكمه .

غير أنه حينما وصلت كتب الأسدية إلى إخوانهم المقيمين بمصر مع بهاء الدين قراقوش ، أبت على هذا الأمير الأسدى نفسه أن يتغير على سيده ، وقام فى الأسدية الذين كانوا معه يخوفهم ويهددهم ، ويحذرهم عاقبة غدرهم وخيانتهم ، وما زال بهم حتى أخمد نشاطهم ، وأطفأ جذوتهم ، وأبطل حيلتهم ، وأحاط بهم ، وفوّت عليهم قصدهم وقصد زعمائهم فى مصر وغير مصر ، وبذلك حبطت المؤامرة التى دبرت ضد الملك العزيز ، بل ما كاد العزيز نفسه يصل إلى القاهرة حتى كان قراقوش

قد انتهى من عمله ، ومهّد له طريق الدخول ، فدخل العزيز مصر ، واستقبله أهلها بسرور عظيم ، ثم وصله الأمير قراقوش بخبر هذه المكيدة ، التى دبرت له فى غيبته ، وقُصد بها إلى خيانته ، فشُكر له السلطان هذا الصنيع ، ثم تقدم إلى السلطان شاعر مصرى عظيم ، هو القاضى السعيد بن سناء المُلك ، فألقى بين يديه قصيدة مطلعها :

مَن فرَّ منكَ فلا يُلاَمُ ... وطريد بأسك لا ينامُ

ومنها قوله متهكما بالأسدية ، بعد إذ فشلوا فى المؤامرة :

وهم الأُسودُ فما لهم ... طاروا كما طار النعامُ ؟
ومضوا وَمَا سُلَّ الحسا ... مُ فكيف لو سُلَّ الحسامُ ؟
لا ينفعون ولن يضـ ... ـروا إن مضوا وإذا أقاموا
فلئن عَفَوتَ فإنما ... يعفو عن الذّنبِ الكرامُ
وإن انتقمتَ فانَّ أيـ ... ـسَرَ ما استحقوا الانتقامُ
وهمُو به سَكرَى وليـ ... ـسَ سوى الهمومِ لهم مُدامُ
ستسوقهم بِيَد الزَّما ... نِ ففى أَنامِلِكَ الزمامُ

وإذن فكما أخلص الأمير قراقوش للسلطان صلاح الدين ، أخلص الإخلاصَ كله لابنه العزيز ، إذ استنابه العزيز عنه فى حكم مصر وهو غائب عنها ، فحافظ الأمير له على العرش ، محافظة أصبحت له بها يد جديدة فى عنق هذه الدولة التى شارك فى بنائها ، وإقامة صرحها ، فكان من الحق عليها أن تحفظ له هذا الجميل !

تلك هى الكلمة التى كتبها التاريخ فى صفحة الأمير بهاء الدين قراقوش ، وذلك بعض ما تجمَّع للتاريخ من الدلائل القوية على عظمة الرجل الخلقية والحربية ؛ فلينظر التاريخ فى سيرة هذا الأمير مرة أخرى ، لعل فيها دلائل على صدقه وعظمة نفسه غير ماذكرنا .

قراقوش الوصى على عرش المنصور

مات العزيز وأوصى بالملك من بعده لابنه المنصور ، وكان هذا الصبى فى التاسعة من عمره ، فأوصى أبوه بأن يكون مدبر أمره بهاء الدين قراقوش ، فأجلس المنصور على السرير غداة اليوم التالى لموت أبيه ، ووقف إلى جانبه الأمير بهاء الدين ، يلى حكمه ، ويحوط ملكه ، ويسوس رعيته ، ويرعى بذلك عهد العزيز ؛ وكان قراقوش قد أسنَّ إذ ذاك ، وإن لم تبلغ به السن حدا يضر بعقله أو بجسمه ، فلم يصدر منه تصرف يدل على خَرَف ، ولا أتى عملا ينبىء عن خَبَل ، وكادت الأمور إذ ذاك تسير سيرا حسنا ، لولا أطماع الملكين الأفضل والعادل ، أو على الأصح أطماع العادل وحده .

والغريب أن الفتنة التى حدثت أيام العزيز توشك أن تكون هى الفتنة التى حدثت فى أيام المنصور ، وأن الظروف التى أحاطت بالثانى ، تشبه فى أكثرها الظروف التى أحاطت بالأول . فقد انقسم الصلاحية والأسدية على أنفسهم من جديد ، وتنازعوا بينهم فيمن يكون الوصى على الصبى ، ورأوا أن يذهبوا إلى القاضى الفاضل لأخذ رأيه ، فامتنع الفاضل عن إبداء رأيه ، بحجة أنه اعتزل

العمل ولزم بيته ، فتركوه وعادوا إلى تنازعهم . فقال الصلاحية : « نعمل بوصية العزيز ونخطب لابنه المنصور ، ونحلف على طاعته ، ونرضى بالأمير قراقوش وصيا عليه ، وأميرا علينا ». وقال الأسدية : « بل نفكر فى وصى يكون من كبار بنى أيوب ، ولولا أن العادل مشغول بحربه ، لدعوناه كى يكون وصيا ، فليس أقرب إلينا الآن من الأفضل ، فلنبعث إليه فى المجىء ، ولنحدد للوصاية أجلاً لا يزيد على سبع سنين ، بعدها يعود إلى ملكه ، ويترك للمنصور عرشه » .

وكتب الأسدية بالفعل إلى الأفضل يدعونه إلى المجىء ، وكتب الصلاحية إلى إخوانهم بدمشق يقولون لهم : « قد اتفقت الأسدية على الأفضل ، وإن مَلَك الأفضل الديار المصرية حكموا علينا ، فامنعوا الأفضل من المجىء إلينا » .

غير أنه حدث لسوء حظ الصلاحية ، أن كتابهم الذى بعثوا به إلى إخوانهم وقع خطأ فى يد الأفضل ، فأخذ الأفضل الكتاب ، وذهب ومعه الرسول إلى مصر وهناك خرج الأسدية والصلاحية للقائه ، ورأى الصلاحية رسولهم معه فى ركابه ، فقالوا : ما أسرع مارجعت ! فأخبرهم الخبر ، فَسُقِطَ فى أيديهم ، واستأذن زعماؤهم فى السفر إلى القدس ، فأذن لهم ، فذهبوا إلى هناك ، وحمدوا الله على نجاتهم . أما قراقوش فحين رأى الأفضلَ عمل برأى الجماعة ، ونزل له يومئذ عن الوصاية ، وقال للأفضل : هذا ابن أخيك ، وما يكون لى أن أُلِىَ أمره فى وجودك ، ولك علىَّ الطاعة مادمت له حافظا ، وأنا أحلف على ذلك .

وبلغت العادلَ هذه الأخبار ، فترك حصاره للمدينة التى كان يحاصرها ، ثم عاد مسرعا إلى دمشق ، وكان الأفضل غائبا عنها بمصر ، فدخلها وتحصن بها ، فأشار الأسدية على الأفضل بالعودة إليها ، فعزم الأفضل على ذلك ، وكاتب أخاه

الملك الظاهر ليساعده فى ذلك ، فوعده الظاهر بالمساعدة .

وكان أهل دمشق يحبون الأفضل ، لأدبه ولينه وحسن خلقه ، على حين يبغضون العادل ، لخبثه ودهائه وسوء حكمه ، وعند ما علموا بعودة الأفضل إلى دمشق ، أخذوا يضايقون بها عمه العادل مضايقة أفسدت عليه كل قصد ، فحطموا بعض أسوار المدينة وأبوابها ، وقطعوا أشجارها ومياهها . ومر العادل نفسه بباب منها ، فرموا على رأسه زيتا بعد غليه ، فأخطأه الزيت ، ووقع على رأس فرسه ، فمات لساعته . كل ذلك والعادل صابر على لأوائه ، مسيطر على أعصابه ، لا ينطق بكلمة واحدة ! حتى بدا له أخيرا أن يلقى سحره ، وينفث سمَّه بين الأخوين المتضافرين ، ففعل ، وفرَّق بسحره بينهما ، بعث إلى الملك الظاهر يقول له : « أنا أسلِّم إليك دمشق على أن تكون لك لا للأفضل » ، فانخدع الظاهر بقوله ، وطمع فى ملك غيره ، و بعث إلى أخيه الأفضل يقول له : « أنت صاحب دمشق ، وقد بلغنى أنك تدَّعيها لى ، وتؤثرنى بها » ، فرد عليه الأفضل يقول : « دمشق لى ، وإنما أُخِذت منى غصبا ، ولا أعطيها أحدا أبدا » . فخاصم الظاهر أخاه ، وتم للعادل ما نواه ، وأوقع بين الأخوين اللذين عاد كل منهما إلى بلده ، وفاز العادل بغُنمه .

وهنا حدَّثت العادلَ نفسهُ بالإغارة على مصر ، فلما علم الأفضل ما عزم عليه عمُّه ، جمع الحاضرين من أمرائه فى ذلك الوقت وأظهر لهم الخوف من عمه ، وكان الأمير بهاء الدين قراقوش حاضرا ، فنهض وقال : « لا تخف يا مولاى ، فنحن جندك ، وجند أبيك من قبلك ، مُرنى أحفظ لك قلعة الجبل ، ثم مرنى أحفر لك ما بقى من سور البلد ، ثم مرنى أتعمق الحفر ، حتى أصل إلى الصخر ، وأن أجعل التراب على حافة الحُفَر ، فيبدو كأنه حائط آخر ، ودعنى أفعل ذلك فيما بين البحر وقلعة

المقس . وبذلك لا يبقى لمصر طريق إلا من بابها الذى يصعب أن يفتحه العدو » .

فسرَّ الأفضل من هذا الرأى ، وشكر للأمير هذا الصنيع ، وكاد النصر يتم للأفضل لولا قلة المال فى يده من جهة ، ولولا تفكيره إذ ذاك فى رأى سيِّئ عزم على العمل به من جهة ثانية ؛ أما المال فلم يكف ما معه منه لسد أعطيات الجند ؛ وأما الرأى السيئ الذى فكر فيه، فهو إحراق مدينة بُلْبَيس ، وقد ظن أن النار تحول بينه و بين الملك العادل ، فلايستطيع الوصول إليه ، فثارت الرعية ، وثار معها الجند ، وكان من حسن حظ العادل أنه أتى مصر فى هذه الآونة الدقيقة ، فتم له النصر ، وفر الأفضل من وجهه إلى بعض مدن الشرق ، واستقر بالعادل المقام ، ونصب نفسه فى أول الأمر وصيا على الغلام ، ثم لم يلبث بعدُ أن أحضر جماعة من الأمراء والفقهاء ، وحدثهم حديثا طويلا جاء فيه :

« إنه قبيح بى أن أكون أتا بك صبى (وصيا عليه) مع الشيخوخة والتقدم ، والمُلك ليس بالإرث ، و إنما هو لمن غلب ، وأنه كان يجب أن أكون بعد أخى الملك الناصر صلاح الدين ، غير أنى تركت ذلك إكراما لأخى ورعاية لحقه ، فلما كان من الخلاف ما قد علمتم ، خفت أن يخرج الملك من يدى ويد أولاد أخى ، فسستُ الأمر إلى آخره ، فما رأيت الحال ينصلح إلا بقيامى فيه ، ونهوضى بأعبائه ، فلما ملكت هذه البلاد ، وطنت نفسى على وصاية هذا الصبىّ حتى يبلغ أشده ، فرأيت العصبيات باقية ، والفتن غير زائلة ، فلم آمنْ أن يطرأ علىَّ ما طرأ على الملك الأفضل ، ولا آمَنُ أن يجتمع جماعة ويطلبوا إقامة إنسان آخر ، ولا يعلم أحد ما تكون عاقبة ذلك . والرأى أن يمضى هذا الصبى إلى الكُتَّاب ، وأقيم له من يؤدبه ويعلمه ؛ فإذا تأهَّل و بلغ أشده ، نظرت فى أمره ، وقمت بمصالحه »

فوافق الفقهاء والأمراء على هذا الرأى ، وخلعوا المنصور وحلفوا للعادل وخطبوا له .

هكذا يجور القوى على الضعيف ، ويظهر الباطل على الحق ، ويغرق الأمير بهاء الدين قراقوش فى بحر من الأفكار البعيدة ، والذكريات القديمة ، فيعيد إلى ذهنه عهد السلطان الملك الناصر صلاح الدين ، ثم يذكر من بعده عهد ولده العزيز ، ثم يستعيد كلمة قالها السلطان صلاح الدين يوما لأخيه الملك العادل : « أنا نجيب ، فما يكون لى أولاد نجباء ؛ وأنت غير نجيب ، فسيكون لك أولاد نجباء » ، فيعجب بهاء الدين قراقوش لهذه الكلمة التى فاه بها السلطان صلاح الدين ، ويقول فى نفسه : « ما كان أفطنَ هذا الرجل العظيم ! فقد أدرك بثاقب نظره ما خبأه القدر لأولاده ، من أنهم لا يملكون بلاده ، وإنما يملكها منهم أولاد أخيه العادل » .

والآن أيها الأمير بهاء الدين ، وقد كبِرتَ وضعفت وتهدمت ، وأحسست كأنك تقف برجلك على حافة القبر ، فما أنت فاعل بهذه الفترة ؟ إنك لن تستطيع بعد اليوم أكثر من أن تلزم بيتك ، وتحبس نفسك ، وتنتظر أجلك الذى لن يمهلك شهورا بعد هذه الحادثة .

قراقوش وابن مماتى

تلك صفحة الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدى ، وتلك أعماله المجيدة ، و بلاؤه الحسن فى خدمة الدولة الأيوبية ، لم نذكرها كلها ، و إنما ألممنا بالمهم منها من جهة ، و بما اتفق عليه المؤرخون جميعا من جهة ثانية ، فلم نذكر أنه اشترك فى فتوح السلطان صلاح الدين بأوسع من هـذا المدى الذى وصفنا ، ولم نذكر أن السلطان العظيم كان يعتمد عليه بين حين وحين فى إخماد الثورات التى كانت تشتعل فى القاهرة نفسها ، دفاعا عن الدولة الفاطمية التى انتهى أمرها ، وشاء القدر أن تقضى على يديه نحبها .

ولـكن شاء القدر أيضا أن يُسلَّط على هـذا القبس العظيم دخانٌ كثيف ، يحول بينه و بين الناظرين إليه ، فلا يصل إليهم حتى يؤذى العين منظره ، ولا يسر النفس أن تدنو منه ، وهكذا الشمس المشرقة إذا اصطلحت على إخفائها السحب ، بل هكذا الحق الأبلج حين تـكتنفه الريب ، بل هكذا الزهرة الطيبة فى طريق كله أقذار ودمن . !

ذلك أن أديبا جليل الخطر ، هو ابن مَمَّاتى ، عُرِفَ أنه كتب فى هذا الأمير

كتابا كله سخرية ، فانتشر الكتاب وذاع ، وتسلى الناس بقراءته ، وتمتعوا بفكاهته ، وحلّت فى أذهانهم هذه الصورة الجديدة ، محل الصورة القديمة .

وأتى مؤرخ عظيم عاش فى أواخر الدولة الأيوبية ، هو ابن خَلِّكان فكتب ترجمة لحياة الأمير بهاء الدين قراقوش ، قال فيها : « والناس ينسبون إليه أحكاما عجيبة ، فى ولايته نيابة مصر عن صلاح الدين ، حتى إن الأسعد بن مماتى له فيه كتاب لطيف ، سماه : « الفاشوش ، فى أحكام قراقوش » وفيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه ، والظاهر أنها موضوعة ، فإن صلاح الدين كان يعتمد فى أحوال المملكة عليه ، ولولا وثوقه بمعرفته وكفايته ، ما فوضها إليه » .

فمن هو ابن مماتى ؟ وهل هناك سبب دعاه إلى كتابة هذا الكتاب ؟ وهل أرادت السياسة أن تنتفع به يوما ما ؟ ومتى كان ذلك ؟

هذه كلها أسئلة نريد الإجابة عنها ، فسنأتى بطرف من سيرة ابن مماتى أولا ، ثم نوضح الظرف الذى أفادت فيه السياسة من هذا الكتاب نفسه بعد ذلك ، ثم ننتقل إلى البحث فى قيمة السخرية التى اشتمل عليها آخر الأمر .

ترجمة ابن مماتى

أما ابن مماتى هذا ، فهو الأسعد أبو المكارم أسعد بن الخطير أبى سعيد مهذّب ابن مينا بن زكريا بن أبى قدامة بن أبى مليح مماتى . ولد حوالى سنة ٥٤٤ للهجرة ، من أسرة مسيحية ، بأسيوط من مدن الصعيد ، وقيل فى تسمية جده باسم «ممّاتى» إن مجاعة حدثت بمصر فى وقت ما ، ولم يجد الناس فيها مايأكلونه ، وكان هذا الرجل غنيا ، وكانت عنده أقوات كثيرة ، فكان الأطفال يذهبون إلى بيته ، وينادونه كما ينادون أمهاتهم ، هاتفين به « ممّاتى ! ممّاتى ! » ، فيخرج إليهم من بيته بما يطلبون .

واشتهر الأسعد نفسه بالأدب ، وأصبح من كبار أدباء مصر المعدودين ، واتصل بالقاضى الفاضل ، زعيم النهضة الأدبية فى وقته ، وبالعماد الأصفهانى ، وغيرهما من فرسان هذه الحلبة ، وكان القاضى الفاضل يحبه ويقربه ، ويطلق عليه اسم « بلبل المجلس » . ولعل ابن مماتى توصل عن طريق القاضى الفاضل لأن يكون فى عهد السلطان صلاح الدين رئيسا لديوان الجيش ، وبقى يشغل هذه الوظيفة الكبيرة طول مدة العزيز ، ثم لما ملك العادل مصر ، واتخذ فيها رجلا عاتيا جبارا ،

هو صفى الدين بن شكر وزيرا له ؛ خافه ابن مماتى ، لما كان يصدر منه فى حقه ، فتركه وفرّ بنفسه هاربا من القاهرة .

ولعل أشهر سيرة للأسعد ابن مماتى ووالده المهذب الخطير مماتى ، هى هذه السيرة التى كتبها لهما ياقوت فى كتابه المعروف بإرشاد الأريب ، إلى معرفة الأديب[1] ، وفيها يقول عن ابن مماتى ، مع قليل من التصرف :

« هو أحد الرؤساء الأعيان الجلّة ، والكتّاب الكبراء المنزلة ، ومن تصرف فى الأعمال ، وولى رياسة الديوان ، وله أدب بارع ، وخاطر وقّاد مسارع ، وقد صنف فى الأدب وعرف ، ومات بمدينة حلب فى الثامن والعشرين من جمادى الأولى سنة ٦٠٦ للهجرة ، على ما نذكره إن شاء الله تعالى . أصله من نصارى أسيوط ، بليدة بصعيد مصر ، قدموا مصر ، وخدموا وتقدموا ، ووُلّوا الولايات . وهو مع ذلك من أهل بيت فى الكتابة عريق ، وهو كالمستولى على الديار المصرية ، ليس على يده يد ، والمسمون بالخلافة محجوبون ، ليس لهم غير السكة والخطبة .

وكان إلى مماتى (جد الكاتب) كثير من أعمال الديوان . فحدثنى الصاحب الوزير الجليل ، جمال الدين الأكرم ، أبو الحسن على بن يوسف الشيبانى القِفطى ، حرس الله علاه ، بمدينة حلب — قال : بلغنى أن بعض تجار الهند قدم إلى مصر ، ومعه سمكة مصنوعة من عنبر ، قد تُنُوِّق فيها وأُجيدت ، وطيبت ورصّعت بالجواهر ، فعرضها على بدر الجمالى ليبيعها منه ، فساومها من صاحبها ،

---

(١) إرشاد الأريب — نشر مرجوليوث — سلسلة جب التذكارية — (VI—2) جـ ٢ ص ٢٤٤ — ٢٥٦

فقال : لا أنقصها من ألف دينار شيئا ؛ فأعيدت إليه ، فخرج بها من دار بدر ، فقال له أبو المليح ، وهو جد الكاتب ، أرنى هذه السمكة ، فأراه إياها ، فقال له : كم سِمت فيها ؟ فقال : لا أنقصها من ألف دينار درهما واحدا ؛ فأخذ بيده ، وقبض ألف دينار من ماله ، وتركها عنده مدة . فاتفق أن شرب أبو المليح يوما وسكر ، وقال لندمائه : قد اشتهيت سمكا ، هاتم[1] المِقْلَى والنار حتى نقليه بحضرتنا . فجاءوا بمقلى حديد وفحم ، وتركوه على النار ، وجاء هو بتلك السمكة العنبر ، فتركها فى المقلى ، فجعلت تتقلى وتفوح روائحها ، حتى لم تبق بمصر دار إلا ودخلتها تلك الرائحة . وكان بدر الجمالى جالسا ، فشمّ تلك الرائحة ، وتزايدت ، فاستدعى الخُزّان ، وأمرهم بفتح خزائنه وتفتيشها خوفا من حريق قد يكون وقع فيها ، فوجدوا خزائنه سالمة ، فقال : ويحكم ! انظروا ما هذا ؟ ففتشوا حتى وقعوا على حقيقة الخبر ، فاستعظمه وقال : هذا النصرانى الفاعل الصانع قد أكل أموالى ، واستبد بالدنيا دونى ، حتى أمكنه أن يفعل مثل هذا ! وتركه إلى الغداة ، فلما دخل إليه وهو مغضب قال له : ويحك ! أستعظم أنا وأنا ملك مصر ، شِراء سمكة من العنبر ، فأتركها استكثارا لثمنها ، فتشتريها أنت ، ثم لا يقنعك حتى تقليها ، وتذهب فى ساعة ألف دينار مصرية ! ما فعلت هذا إلاّ وقد نقلت بيت أموالى إليك وفعلت ! فقال له : والله ما فعلت هذا إلاّ غيرة عليك ، ومحبة لك ، فإنك اليوم سلطان نصف الدنيا ، وهذه السمكة لا يشتريها إلاّ ملك ، فخفت أن يذهب بها إلى بعض الملوك ، ويخبره بأنك استعظمتها ولم تشترها ، فأردت أن أعكس الأمر ، وأعلمه أنك ما تركتها إلا احتقارا لها ، وأنها لم يكن لها عندك مقدار ،

---

(١) كذا وردت هذه الكلمة فى الأصل .

وأن كاتبا نصرانيا من كتابك اشتراها وأحرقها ، فيشيع بذلك ذكرك ، ويعظم عند الملوك قدرك .

فاستحسن بدر ذلك منه ، وأمر له بضعفى ثمنها ، وزاد فى رزقه !

وكان مماتى مع ذلك كريما قد مدحه الشعراء ، فذكر أبو الصلت فى كتاب الرسالة المصرية له : إن أبا طاهر إسمعيل بن محمد النشاع ، المعروف بابن مكنسه كان منقطعا إليه . فلما مات مماتى رثاه ابن مكنسة بقصيدة منها :

ماذا أرجّى من حيا تى بعد موت أبى المليح
ما كان بالنِّكس الدنىِّ من الرجال ولا الشحيح
كفر النصارى بعد ما غدروا به دين المسيح

كذا قال ، ولعلهم اغتالوه أو قتلوه .

ولما ولى الأفضل بن أمير الجيوش بدر الجمالى بعد أبيه ، دخل إليه ابن مِكنسة مادحا ، فقال له : ذهب رجاؤك بموت أبى المليح ، فما الذى جاء بك إلينا ؟ وحرمه ، ولم يقبل مديحه .

وكان المهذب والده ، يلقب بالخطير ، وكان كاتب ديوان الجيش بمصر فى أواخر أيام المصريين (يريد الفاطميين) وأول أيام بنى أيوب مدة ، فقصده الكتاب ، وجعلوا له حديثا عند السلطان ، فهمّ به صلاح الدين يوسف ابن أيوب ، أو أسد الدين شيركوه ، وهو يومئذ المستولى على الديار المصرية ، فخاف المهذب ، فجمع أولاده ، ودخل على السلطان ، وأسلموا على يده ، فقبلهم ، وأحسن إليهم ، وزاد فى ولايتهم ، وجبّ الإسلام ما قبله .

قال ياقوت : ووجدت على ظهر كتاب من تصانيف ابن مماتى مكتوبا :

كان المهذب المعروف بالخطير مرتبا على ديوان الإقطاعات ، وهو على دين النصرانية ، فلما علم أسدالدين شيركوه فى بدء أمره بمصر أنه نصرانى ، وأنه يتصرف فى عمله بلا غيار ، نهاه ، وأمره بغيار النصارى ، ورفع الذؤابة ، وشد الزُّنار ، وصرفه عن الديوان ، فبادر هو وأولاده فأسلموا على يده ، فأقره على ديوانه مدة ، ثم صرفه عنه . فقال فيه ابن الذَّرَوِى :

لم يُسلم الشيخ الخطير لرغبة فى دين أحمد
بل ظن أن محاله يُبْقى له الديوان سرمد
والآن قد صرفوه عنه فدينه (العَودُ أحمد)

ولما أمر شيركوه النصارى بلبس الغيار[1]، وأن يعمموا بغير عذبة ، قال عُمارة اليمنى :

يا أسد الدين ومن عدله يحفظ فينا سنَّة المصطفى
كفى غيارا شدَّ أوساطنا فما الذى يوجب كشف القفا ؟

ومن عجيب ما جرى للخطير (والد ابن مماتى) أنه كان يوما جالسا فى ديوانه ، فى حجرة موسومة بديوان الجيش ، من قصر السلطان بمصر ، وكانت حجرة حسنة مرخَّمه منمقة ، فجاءه قوم وقالوا له : قم من ها هنا . فقال لهم : ماالخبر ! فقالوا : قد تقدم الملك العادل أبو بكر بن أيوب بأَخْذ رخام هذه الحجرة ، وأن يعمِّر به موضعا آخر . فخرج منكسرا كاسفا . فقيل له فى ذلك ، فقال : قد استجيبت فينا دعوة ، وما أظننى أجلس فى ديوان بعدها ، أما سمعتم إذا بالغوا

(١) الغيار لباس يختصّ بالنصارى ، وكان عليهم أن يلبسوه ليغايروا به المسلمين .

فى الدعاء علينا قالوا : خرب الله ديوانه . وما بعد الخراب إلا اليباب . ثم دخل منزله أو حمّ ، فلم يخرج منه إلاّ ميتا . فلما مات خلفه ابنه الأسعد هذا على ديوان الجيش ، وتصدر فيه مدة طويلة ، ثم أضيف إليه فى الأيام الصلاحية والعزيزية ديوان المال ، وهو أجل ديوان من دواوين مصر ، وتصدر فيه ، واختص بصحبة القاضى الفاضل عبد الرحيم بن على البيسانى ، وحظى عنده ، وأكرم لديه ، فقام بأمره ، وأشاع من ذكره ، ونبّه على فضله ، وصنف له عدة تصانيف باسمه . ولم يزل على ذلك إلى أن ملك الملك العادل أبو بكر بن أيوب الديار المصرية . وكان وزيره والمدير لدولته الصفى عبد الله بن على بن شكر ، وكان بينه و بين الأسعد ذحل[1] قديم ، أيام رياسته عليه ، ووقعت من الأسعد إهانة فى حق ابن شكر ، فحقدها عليه ، إلى أن تمكن منه . فلما ورد مصر أحضر الأسعد إليه ، وأقبل بكليته عليه ، وفوّض إليه جميع الدواوين التى كانت باسمه قديما ، و بقى على ذلك سنة كاملة ، ثم عمل له المؤامرات ، ووضع عليه المحالات ، وأكثر فيه التأويلات ، ولم يلتفت إلى أعذاره ، ولا أعاره طرفا لاعتذاره ، فنكبه نكبة قبيحة ، ووجّه عليه أموالا كثيرة ، وطالبه بها ، فلم يكن له وجه ، لأنه كان عفيفا ذا مروءة ، فأحال عليه الأجناد ، فقصدوه وطالبوه ، وأكثروا عليه وآذوه واشتكوا إلى ابن شكر ، فحكّمهم فيه . فحدثنى المؤيد إبراهيم بن يوسف الشيبانى قال : سمعت الأسعد يقول : عُلّقت فى المطالبة على باب دارى بمصر على ظهر الطريق فى يوم واحد إحدى عشرة مرة ، فلما رأوا أننى لا وجه لى ، قيل لى تحيّل ونجّم هذا المال عليك فى نجوم[2] . فقلت أما المال فلا وجه له عندى ، ولكن إن

---

(١) الذحل : الثأر . (٢) أقساط .

أطلقت وملكت نفسى ، استجديت من الناس ، وسألت من يخافنى ويرجونى ، فلعلى أحصل من هذا الوجه . فأما من وجه حاصل ، فليس لى بعد ما أخذتموه منى درهم واحد ؛ فنُجِّم المالُ علىّ ، وأطلقت ، وبقيت مُدَيْدَةً إلى أن حل بعض نجوم المال علىّ ، فاختفيت واستترت ، وقصدت القرافة ، وأخفيت نفسى فى مقبرة المادرائيين[1] ، وأقمت بها مدة عام كامل ، وضاق الأمر علىّ ، فهربت قاصدا للشام ، على اجتهاد من الأستاذ ، فلحقنى فى بعض الطريق فارس مجدّ ، فسلّم علىّ ، وسلّم إلىّ مكتوبا ، ففضضته وإذا هو من الصفىّ بن شكر ، يذكر فيه :

« لا تحسب أن اختفاءك عنى كان بحيث لا أدرى أين أنت ، ولا أين مكانك . فاعلم أن أخبارك كانت تأتينى يوما يوما ، وأنك كنت فى قبور المادرائيين بالقرافة منذ يوم كذا ، وأننى اجتزت هناك ، واطلعت فرأيتك بعينى ، وأنك لما خرجت هاربا عرفت خبرك ، ولو أردت ردّك لفعلت ، ولو علمت أنك قد بقى لك مال أو حال لما تركتك . ولم يكن ذنبك عندى مما يبلغ أن أتلف معه نفسك ، وإنما كان مقصودى أن أدعك تعيش خائفا فقيرا غريبا ممجّجا فى البلاد ، فلا تظن أنك هربت منى بمكيدة صحّت لك علىّ ؛ فاذهب إلى غير دعة الله » .

قال : وتركنى القاصد وعاد ، فبقيت مبهوتا إلى أن وصلت إلى حلب . فحدثنى الصاحب جمال الدين الأكرم أدام الله علوه ، قال :

ورد الأسعد إلى حلب ، ونزل فى دارى ، فأقام عندى مدة ، وذلك

---

(١) فى ياقوت : « الماذرائيين » بالذال ، وهو تصحيف . قال فى تاج العروس : ومحمد ابن على المادرائى وزير مصر . أورده فى مدر .

فى سنة ٦٠٤ ، وعرف الملك الظاهر غازى بن صلاح الدين ابن أيوب رحمه الله خبره ، فأكرمه ، وأجرى عليه فى كل يوم دينارا صوويا ، وثلاثة دنانير أخرى أجرة دار ، غير بر وألطاف ما كان يخليه منها . وأقام عنده على قدم العطلة إلى سنة ٦٠٦ كما ذكرنا ، ومات ، فدفن بظاهر حلب ، بمقام بقرب قبر أبى بكر الهروى .

وله تصانيف كثيرة ، يقصد بها قصد التأدب ، وفى معرض وقائع تجرى ، ويعرضها على الأكابر ، لم تكن مفيدة إفادة علمية ، إنما كانت شبيهة بتصانيف الثعالبى وأضرابه ، فمن ذلك :

(١) كتاب تلقين التفنن ، فى الفقه .

(٢) « سر الشعر .

(٣) « علم النثر .

(٤) « الشىء بالشىء يذكر (عرضه على القاضى الفاضل ، فسماه سلاسل الذهب ، لأخذ بعضه بشعب بعض) .

(٥) كتاب تهذيب الأفعال لابن ظريف .

(٦) « قرقرة الدجاج ، فى ألفاظ ابن الحجاج .

(٧) « الفاشوش ، فى أحكام قراقوش .

(٨) « لطائف الذخيرة لابن بسام .

(٩) « ملاذ الأفكار ، وملاذ الاعتبار .

(١٠) « سيرة صلاح الدين يوسف بن أيوب .

(١١) « أخاير الذخائر .

(١٢) كتاب كرم النجار فى حفظ الجار (عمله للملك الظاهر لما قدم عليه) .

(١٣) « ترجمان الجمان .

(١٤) « مذاهب المواهب .

(١٥) « باعث الجلد ، عند حادث الولد .

(١٦) « الحض ، على الرضى بالحظ .

(١٧) « زواهر السدف ، وجواهر الصدف .

(١٨) « قرص العتاب .

(١٩) « درة التاج .

(٢٠) « ميسور النقد .

(٢١) « أعلام النصر .

(٢٢) « خصائص المعرفة فى المعميّات .

* * *

وكان علم الدين ابن الحجاج شريكه فى ديوان الجيش ، وكان بينهما ما يكون بين المتماثلين فى العمل ، فعمل فيه الكتاب المتقدم ذكره ، وهجاه بعدة أشعار ، منها :

حكى نهرين ما فى الأر ض من يحكيهما أبدا
ففى أفعاله ثَوْرَى وفى ألفاظه بَرَدا[١]

ثم أورد ياقوت طائفة صالحة من أشعار ابن مماتى ، كثير منها فى وصف الثلج ، منها قوله على سبيل المثال :

---

(١) ثورى وبردى : نهران مشهوران بأرض الشام ، وفيهما تورية يفهمها القارئ .

قد قلت لما رأيت الثلج منبسطا على الطريق إلى أن ضلّ سالكها
ما بيّض الله وجه الأرض فى حلب إلا لأن غياث الدين مالكها

تلك إذن أطراف من سيرة الأسعد بن مماتى ، وأطراف من سيرة والده مهذب بن مينا ، الملقب (بالخطير) ؛ ومنها نعلم أن كاتبنا نشأ فى بيت غنى وجاه ، وأن أسرته كانت من الأسر المشهورة فى الديار المصرية ، وأنها كانت تتولى عملا هاما من أعمال الحكومة ، على عهد الدولتين الفاطمية والأيوبية ، وأنها دخلت فى الإسلام ، فزاد الإسلام فى شأنها ، وإن كان هذا قد أتاح لأعدائها فرصة السخرية منها والتهكم بها ؛ وكان من أشهر ما تمتاز به هذه الأسرة ، فوق خصال الكرم والجود والأمانة والمروءة ، صفة العلم والأدب ، ولقد برع ابن مماتى نفسه فى الكتابة ، براعة أمكنته من كتابة هذا العدد الضخم من الكتب . على أن يا قوتا لم يحص كل ما عرف لابن مماتى من كتب ؛ ونحن نعرف أن من بينها كتابا ذكره ابن خلكان هو « نظم كليلة ودمنة » وكتابا خطير الشأن هو كتاب « قوانين الدواوين » وهو الكتاب الذى أمر بنشره المغفور له الأمير عمر طوسون .

لم يبق بعد إلا أن نعرض صورا من كتاب الفاشوش كما وصل إلينا .

ولقد آثرنا هنا أن نقدم ثلاثا من هذه الصور :

الأولى : صورة من النسخة التى نسبت إلى ابن مماتى نفسه ، ورجّح الأستاذ كازانوفا صحة هذه النسبة .

الثانية : صورة من النسخة التى كتبها جلال الدين السيوطى فى القرن التاسع للهجرة .

الثالثة : صورة من نسخة عنوانها : « الطراز المنقوش فى حكم السلطان قراقوش » وهى متأخرة زمنا عن النسختين السابقتين .

أما الأولى فقد نقلناها كاملة أو كالكاملة ، وأما الأخريان فقد اكتفينا منهما بما لم تشتمل عليه الأولى .

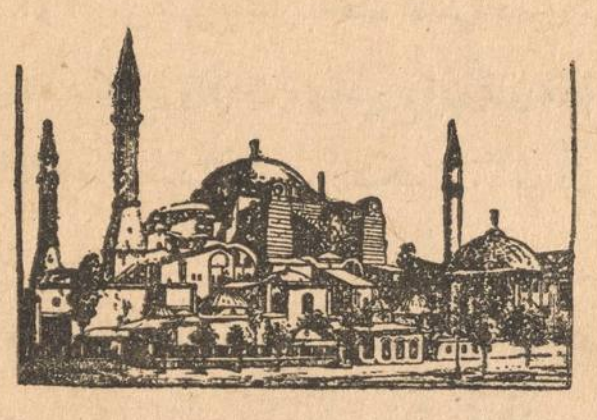

كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش

وأول هذا الكتاب قوله :

« إننى لما رأيت عقل بهاء الدين قراقوش مِحزَمَةَ فاشوش[1]، قد أتلف الأمة ، والله يكشف عنهم كل غمَّه ، لا يقتدى بعالِم ، ولا يعرف المظلوم من الظالِم . الشكيَّة عنده لمن سبق ، ولا يهتدى لمن صدق . ولا يقدر أحد من عظم منزلته على أن يرد كلمته ، ويشتط[2] اشتياط الشيطان ، ويحكم حكما ما أنزل الله به من سلطان ؛ صنَّفت هذا الكتاب لصلاح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين .

وكان قراقوش رجلا صقلبيا يميل إلى البيض ويكره السود ... الخ » .

ثم ساق الكاتب ما أراد سوقه من الحكايات[3] الدالة على ذلك ومنها :

---

(١) فى القاموس : الفشوش الأحمق ، وفشى الرجل افتخر بالباطل وفشفش ضعف رأيه وأفرط فى الكذب ، ومحزمة على وزن مِكنسة ما يحزم به : والمعنى أن عقل قراقوش لا ينطوى إلا على الغباء والحمق .

(٢) هكذا وردت بالأصل . والصحيح أنها اشتاط ليكون مصدرها اشتياطا . غير أننا لا نملك هنا تصحيح النص على هذا النحو حتى لا نضر به .

(٣) انظر بحثا للأستاذ كازانوفا فى Mission Archeologique Française au Caire. 44

— ١ —

فأول حكومة أن أمراة حجازية لها جارية تركية ، قالت لقراقوش :

إن هذه جاريتى قد أساءت الأدب علىّ . فنظر قراقوش إلى بياض الجارية التركية وسواد الحجازية فقال للحجازية : ويلك ! خلق الله جارية تركية لجارية سوداء حجازية ؟ ما أنا مطعوم [١] ولا مدوّخ . يا غلمان ودُّوا [٢] هذه الحجازية الحجرة !

فمكثت الحجازية شهرا وما لبثت أن عادت إليه تقول :

إنني قد أعتقتها لوجه الله تعالى . فقال :

هذا الحال متى تعتقك ، فإنك جاريتها ، وإن أرادتْ بيعك فتبيعك ، وإن أرادت عتقك فتعتقك . فقالت الحجازية للتركية : اعملى معى مثل ما عملت معك . فقالت التركية : وما تريدين منى ؟ فقالت الحجازية : أن تعتقينى . فقالت التركية : إننى قد عتقت سيدتى الحجازية . فقال قراقوش : جزاك الله خيراً !!

— ٢ —

وأتاه ثلاثة أنفس : أحدهم أجرود سنّاط [٣] والاثنين كبار اللحى ، وقد نتف الأجرود ذقونهما . فقال الرجلان : يامولانا بهاء الدين ، خذ لنا حقنا من هذا ، فقد نتف ذقوننا وخرّق ثيابنا .

---

(١) الطغامة كسحابة الأحمق ، والطغومة الحماقة ، وتطغمّ تجاهل .

(٢) يريد أن يقول (خذوا) وهى لهجة مصرية لم تزل مستعملة بمصر إلى اليوم .

(٣) السناط : الخفيف العارض الذى لا لحية له أصلا ، أو لحية بالذقن وما بالعارضين شىء .

فنظر قراقوش إلى الأجرود السناط وقال : ويلكم ! نتفتم ذقن هذا الصبى وجئتم تشكونه ! ودوهما إلى الحبس ، ولاتخرجوهما حتى تطلع ذقن هذا الصبى !

— ٣ —

وقيل إن امرأة أتته بولدها ، فقالت : يا سيدى ، إن ولدى يشتمنى . فأمر بحبسه سنة ، فلم يأخذ أمَّه تلك الليلة نوم ، فلما أصبحت راحت إلى السجانين وقالت : ما الحيلة فى خلاص ولدى من هذا الحبس ؟ فقالوا لها : هاتى حلاوتنا ونعرفك إيش ، (أىّ شىء) تقولين للأمير بهاء الدين قراقوش ؛ فدفعت إليهم الفضة ، وقالوا لها : روحى الساعة إلى الأمير ، وقولى له : يا سيدى ، أنا امرأة حبستَ لى ولدى سنة ، وقد انقضت السنة ، فأخرجْ لى ولدى . فأتت المرأة إلى الأمير قراقوش ، وقالت له ذلك . فقال لها : روحى ، بلا محال قد بقى له من السنة سبعة أيام ، من سوى أمس وغدا . فمضت المرأة وأعلمت السجانين ، فقالوا لها : هذه نعمة . فإذا كان غدا ، روحى إليه ، وقولى له : قد انقضت السبعة أيام .

فأصبحت المرأة وجاءته ، فلما نظر إليها قال : يا امرأة ، حتى تغرب الشمس ! يا غلام ، فإذا غربت الشمس ، فأطلق لها ولدها من الحبس . ولا ترجعى تجيبيه[1] أو يحبسوه سنتين . . . الخ !

---

(١) سيجد القارىء فى هذه الحكايات عدا الألفاظ العامية كثيرا من الأخطاء النحوية ، وليس من حقنا أن نصححها لأمرين : أولهما الأمانة العلمية ، وثانيهما الحرص على أن نقدم للقراء صورة من لغة الأدب الشعبى فى مصر ، فى القرنين السادس والسابع للهجرة .

— ٤ —

وقيل : إنه سابق رجلا بفرس له ، فسبقه الرجل بفرسه ، فحلف أنه لا يعلفه ثلاثة أيام . فقال له السابق : يا مولاى يموت . فقال له قراقوش : احلف لى أنك إذا علفته يا هذا ، لا تعلمه أننى دريت بذلك !

— ٥ —

قيل : وأتوه بغلام له ركبدار[١] ، وقد قَتَل ، فقال : اشنقوه ! فقيل له : إنه حدَّادُك ، وينعل لك الفرس ، فإن شنقته انقطعت منه . فنظر قراقوش قبالة بابه لرجل قفَّاص[٢] ، فقال : ليس لنا بهذا القفَّاص حاجة ! فلما أتوه به ، قال : اشنقوا القفَّاص ، وسيبوا الركبدار الحداد ، الذى ينعل لنا الفرس !

— ٦ —

وتوقف النيل بمصر أياما ؛ فنظر إلى جمال السقايين عشرين وعشرين ، ففكر عند ذلك وقال : فإنا نقول الماء ما يوفى من هذا إلاَّ فات[٣] . يا غلمان ، نادوا فى المدينة : قد أمر بهاء الدين قراقوش لا يملَى أحد من البحر إلا جملا واحدا. ففعلوا ذلك ، فأوفى النيل . فقال لهم : ياهؤلاء ، الويل لكم إن عدمتمونى، فكيف رأيتم رأيى عليكم ؟ فما هو إلاَّ رأى مبارك !

— ٧ —

ومدحه رجل بقصيدة ، وأنشدها بصوت طيب ؛ فقال له قراقوش : يا مقرىء ! لقد قرأت طيب ، وأنا أريد أن أخرز هـــذه القصيدة على

(١) لعلها ركابدار أى صاحب الركاب .
(٢) القفاص هنا : صانع الأقفاص جمع قفص .
(٣) كذا بالأصل .

ذراعى ، فأنت مدحتنا ، ونحن دعونا لك ، فجزاك الله عنا خيرا !

فقال الشاعر : وأنت فلا جزاك الله عنا خيرا !

فقال بهاء الدين : يا هذا ، كأنى أراك جائعا ، أعطوه مائة أردب قمح .

فأخذها الشاعر وانصرف .

— ٨ —

وحكى أنه بات ليلة عند قاضى المطرية ، فأخرج له قراقيش[1] وزيتون .

فقال له قراقوش : إن كان فى غداة غد ، فتعال إلينا القاهرة .

فلما أصبح القاضى ، ركب مهرة له ، وأتى إلى قراقوش يسلم عليه ، فأبصر حصان قراقوش المهرة فشبّ ، فتقطب قراقوش ، فحصل له بذلك تشويش .

قيل فحطّ القاضى فى الحبس سنة ؛ ثم أخرجه واستخدمه على الأهراء[2] ، فمكث سنة فى أطيب عيش ، فأتاه وقت الغلة يسلم عليه . فقال له قراقوش : اعمل لنا حساب القمح والشعير والحمص .

فكتبهم القاضى فى جريدة بالكل ، وأتاه بها . فقال له : ما هذا ؟ خلطت القمح والشعير والفول والحمص فى جريدة واحدة ؟ يا غلمان احبسوه !

فمكث فى الحبس سنة ثانية . فدخل الحبس رجل نصرانى ، فتحدث هو والقاضى ، فعلّمه كيف خلاصه . فأخذ النصرانى منه الجريدة ، فكتب بالقمح وحده ، وبعثه إلى قراقوش . وبعد شهر كتب بجريدة الشعير وحده ، وبعد شهر كتب بجريدة الفول وحده ، وبعد شهر كتب بجريدة الحمص وحده ، فلما حصل

---

(١) الخبز المجفف ، وهى كلمة عامية مازالت مستعملة بمصر للآن .

(٢) الأهراء : جمع هرى ، وهو المكان الذى يجمع فيه محصول السلطان من قمح وغيره .

الكل عند قراقوش قال : لقد تعبت يا فقيه . نقّيت هذا من هذا ، وذا من ذا ! زفوه فى المدينة !

قيل : فزفوه فى المدينة !

فخلف القاضى ألا يبقى يخدم قراقوش أبدا .

— ٩ —

قيل وجاءه شاب مضروب ، فبعث معه خمس رجال من الجنادرة[1] ، فبلغ ذلك خصمه الظالم ، فسبقه ووقف بجانب قراقوش .

فلما أقبل الشاب قال الخصم : هذا الذى قتلنى وضربنى !

فبطحه الأمير وضربه ، إلى أن أشرف على الموت وهو يقول : أنا مظلوم !

فقال له قراقوش : سبقك !

فخلف الناس أنهم لا يقعدون ما دام قراقوش فى البلد حاكما .

— ١٠ —

قيل وأتوه بمحضر فيه شهادة المسلمين بإثبات دار فى خُط قصر الشمع . فنظر عند ذلك الأمير بهاء الدين قراقوش فى المحضر ، وقال : يا هؤلاء ، أكملتم المحضر بخط رئيس اليهود ؟ فقالوا : لا . فقال : هذا كله زور وبهتان ومحال ، ورمى المحضر من يده !

— ١١ —

قيل وأتاه شيخ وصبى أمرد ، كل[2] منهما يقول : يا مولاى دارى !

---

(١) الجنادرة : من جاندارمه بمعنى الحارس أو المتتبع للعصاة والمجرمين .

(٢) فى الأصل : كلا .

فقال عند ذلك قراقوش للصبى : معك كتاب يشهد لك ؟ فالدار ما تكون إلا للشيخ الكبير . يا صبى ، ادفع له داره ، وإذا صرت فى عمر هذا الشيخ الكبير دفع لك الدار !

— ١٢ —

وأتوه بغلام ، وفى يده ديك ، فقال : يا هذا ! إن هذا الديك لو نقر عينك لكان يقلعها . يا غلمان ، خذوا منه دية عينه . !

فخلف الغلام ألا يقعد فى مدينة يكون حاكمها قراقوش أبدا .

— ١٣ —

وأتاه رجل نصرانى ، فخاف أن يَدخُلَ بِدَواته الآبنوس السوداء ، فيقول الأمير : «صبحتنا بالسواد»، فجعلها فى خرقة ، فسالت اللِّيقة على ساق النصرانى ، فقال له قراقوش : ويلك ! مما تغلط فى دفاتر مولانا السلطان وتلحسهم (أى تلحس الأغلاط) صارت بدلتك سودا . !

يا غلمان : ودُّوه إلى الحبس حتى تبيض بدلته ثم نخلصه . !

* * *

فهذا بعض ما وضعه ابن مماتى . والقارئ لهذه الحكايات يعجب من الكاتب ، كيف وصف الأمير بهاء الدين قراقوش بأوصاف تتدرج فى القبح والشناعة ، وإن كادت تتقارب فى هذا القبح وهذه الشناعة ، فيصفه فى هذه الحكايات بالظلم ، الذى لا يصدر عن قدرة ، ولكن يصدر عن غفلة ؛ ويصفه بالبله الذى جعله يطلب إلى صديقه أن يغلف الفرس ، على شريطة ألا يعلم الفرس

نفسه أن الأمير أمر بذلك ! وأى غفلة أكبر ، وخبل أعظم ، من خبل رجل يحسب اليوم سنة كاملة ، ثم يحسب الليلة وحدها أسبوعا كاملا ، كما تصوره قصة المرأة التى اشتكت إليه ولدها ؟ !

بل أى غَباء هذا الذى يظهر لنا من حكاية السقايين ، الذين أمرهم الأمير ألا يملأ كل منهم من النيل أكثر من جمل واحد ، ثم لما زاد النيل ظن أن الزيادة إنما أتت من اقتصاده فى الماء ، وقيامه على تدبير أمره ؟!

وبم نصف قراقوش فيما زعمت لنا هذه القصص الخبيثة ، حين نقرأ خبره مع القاضى الذى كتب له حساب القمح والشعير والفول فى ورقة واحدة ، فحبسه الأمير ، ثم لم ينقذه من السجن إلا كتابة كل صنف على حدته ، فى ورقة مستقلة ، فلما اجتمعت الأوراق كلها لدى الأمير قال للقاضى : لقد تعبت يا فقيه ، فنقيت هذا من هذا ، وذا من ذا ؛ ثم أمر غلمانه فطافوا به المدينة ؟ !

وهكذا استطاعت هذه القصص أن تزرى بالأمير ، وأن تضحك الناس منه ومن عقله وخلقه ، بطريقة ربما لا يستطيع أن يحسنها الشعر الهجائى نفسه ، مهما بلغ من الشناعة والإقذاع ، والقبح والتبذل . بل هكذا استطاعت هذه القصص الصغيرة أن تمسح من أذهان الناس الصورة الحقيقية للأمير ، وترسُم مكانها صورة أخرى ، أصبحت عند الناس رمزا للبله والغفلة ، والحمق والتعسف ، والخبَل والأنانية . !

ثم إن كتاب الفاشوش كغيره من كتب القصص والخرافات ، تداوله الناس جيلا بعد جيل ، وكثيرا ما وجدوا فيه راحة لهم من حاكم ظالم ، أو أمير عاتٍ ، أو والٍ معتوه ، أو رئيس طاش رأيه ، ونساءت سمعته .

والكتاب نفسه ، فى أثناء ذلك كله ، يأخذ أشكالا مختلفة ، يختص كل شكل منها بجيل من الأجيال ، أو أمة من الأمم . وذلك حتى نسى الناس جملةً شخصية الرجل الذى وضع الكتاب من أجله ، ونسوا المؤلف نفسه .

من ذلك مثلا أنه فى القرن الثامن للهجرة ظهر أن وزيرا عظيما كمحيى الدين ابن عبد الظاهر ، من وزراء دولة المماليك ، كان يجهل أن الكتاب لابن نماتى . ثم فى القرن التاسع الهجرى ألف عالم خطير ، وفقيه كبير ، هو الشيخ جلال الدين السيوطى كتابا اسمه « الفاشوش ، فى أحكام قراقوش » ، قال فيه عن نفسه :

« و بعد ، فقد سئلت فى دروسى بالجامع الطولونى فى أواخر المحرم سنة تسع وتسعين وثمانمائه عن قراقوش ، وهل له أصل فى التاريخ أم لا ؟ وهل ما يعزى إليه من الحكايات المضحكة لها أصل أم لا ؟ فجمعت فيه هذه الأوراق فى تلك الليلة ، وحررتها فى ساعات قليلة » .

ثم نسب السيوطى إلى صاحب كتاب « النجوم الزاهرة » أنه قال عند ذكر السلطان صلاح الدين الأيوبى : «وكان وزيره بمصر الصاحب بهاء الدين قراقوش ، صاحب الحارة المعروفة بسويقة الصاحب القديمة فى الجامع الحاكمى ، وكان رجلا صالحا غلب عليه الانقياد إلى الخير ، وكان السلطان يعلم منه عدم الفطنة والنباهة ، وكان إذا سافر السلطان من مصر إلى الشام فى زمان الربيع ، كما هى عادته فى كل سنة ، يفوض إليه أمرها ، مع مشاركة بعض أولاده ، لعدم استيثاقه منه بالانفراد فى ذلك ، لكنه فى عام إحدى وستين وخمسمائة حكمها منفردا من غير مشاركة ، لوفاة ولى العهد المشارك له فى ذلك ، فلم يستقم له الحال ، ووضعت عليه الحكايات المضحكة » .

ثم أورد السيوطى حكايات ونوادر عن بهاء الدين قراقوش ، منها ما هو مذكور فى النسخة التى اعتمدنا عليها ، ومنها ما هو غير مذكور بها ، ومن هذه الحكايات التى كتبها السيوطى : —

— ١ —

حكى عن قراقوش أنه نشر قميصه ، فوقع من على الحبل ، فبلغه ذلك ، فتصدق بألف درهم ، وقال : لو كنت لابسه ووقع بى لانكسرت !

— ٢ —

وحكى أنه كان فى كل سنة يتصدق بمال جزيل ؛ فلما انتهت الصدقة أنهت إليه امرأة أن زوجها مات ولا كفن له . فقال : أما الصدقة بتاع هذه السنة نفرغت ، ولكن إذا كانت السنة الآتية ، فتعالىْ نرسم لك بكفن ، إن شاء الله تعالى !

— ٣ —

وحكى أن جنديا نزل فى مركب ، وكان به فلاح وزوجته ، فضربها الجندى ، فسقطت ، وكانت فى سبعة أشهر ، فشكا الفلاحُ الجندىَّ للأمير ، فقال له : خذ زوجة الفلاح عندك ، وأطعمها وأسقيها ، حتى تصير فى سبعة أشهر ، وأعدها إلى زوجها . فقال الفلاح : يامولانا ، تركت أجرى على الله ! وأخذ زوجته وذهب .

— ٤ —

وحكى أن شخصا شكا له مماطلة غريمه ، فقال له المدين : يا مولانا ، إنى رجل فقير ، وإذا حصلت شيئا له ، لا أجده ؛ فإذا صرفته ، جاء وطالبنى . فقال

قراقوش : احبسوا صاحب الحق، حتي يصير المديون إذا حصّل شيئا يجد له موضعا معلوما يدفع له فيه !

فقال صاحب الحق : تركت أجرى على الله ، ومضى . !

— ٥ —

ويحكى أنه سُرقت عُملة فى زمنه ؛ فقال لأصحاب العملة : الحارة بتاعتكم لها درب ؟ (يريد باب) . فقالوا له : نعم . فقال : اذهبوا إيتونى به ، ففعلوا ، وجاءوا بالدرب إليه . فقال : مُدوه . فقالوا : يا مولانا ، هذا خشب لا يعقل ! فقال لهم : افعلوا ما آمركم به . فمدوه وضربوه ، ونزل إليه قراقوش ، ووضع أذنه بجانبه ، وجعل يوشوشه ؛ فلما فرغ قال لهم : اجمعوا لى باقى أهل الحارة والدرب . فلما حضروا قال لهم : الدرب يخبرنى أن الذى سرق العملة على رأسه ريشة ، وكان سارق العملة (واقف) بجملة الناس ، فتوهم ورفع يده إلى رأسه ، فرآه قراقوش فأمر به ، وقرره بالضرب ، وأحضر العملة ، ودفعها إلى أصحابها .

— ٦ —

وحَكى أنه طار له باز ، فقال : اقفلوا باب النصر ، وباب زَويلة . فإن الباز لا يجد له موضعا يطير منه !

— ٧ —

ويحكى أنه كان بمصر رجل تاجر ، وكان بخيلا ؛ وكان ولده يقترض على موته قدرا معلوما ، فزاد عليه وما مات والده ، فاتفق مع الغرماء أن يدفنوا والده بالحياة . فدخل هو والدائنون عليه ، وغسلوه وكفنوه ، ووضعوه فى النعش ، وهو يصيح فلا يُغاث ؛ وجاءوا حول تابوته ذاكرين يصيحون حوله . فلما وصلوا

للصلاة عليه ، اتفق أن قراقوش كان مارًّا ، فنزل وصلى عليه . فلما سمع الميت بذلك قال : الحمد لله ، جاءنى الفرج ! فجلس فى التابوت ، وقال : يا مولانا السلطان ، خلِّص حقى لى من ولدى ، فإنه يريد دفنى بالحياة ! فقال له : كيف تدفن والدك بالحياة ؟ فقال الولد : كذب علىَّ يا مولانا السلطان . ما غسلته إلا وهو ميت ، ولا حملته إلا وهو ميت ؛ وهؤلاء الحاضرين يشهدون بذلك . فقال للحاضرين : أتشهدون بذلك ؟ فقالوا نشهد بما قال الولد . فالتفت قراقوش للميت وقال : أنا جيت أصدقك وحدك وأكذب هؤلاء الحاضرين . روح اندفن بلا شفاعة ، لئلا تطمع فينا الموتى ، ولا يبقى أحد يندفن بعد هذا اليوم !

فحملوه ودفنوه بالحياة ، فى ذمة قراقوش !

— ٨ —

ويحكى[1] أنه وَجَدَ كردى يعمل فى حمارة، فقال : حدُّوه ! : فحدُّوه . وقال : حُدُّوا الحمارة ! ! فقيل له : إنها حمارة خرساء لا عقل لها . فقال : حدوها لأن لها الغرض ، لو اشتهت[2] رفسته برجلها ، أو عضته بفمها ، أو هربت منه . حدُّوها لا تطمع فيها الزناة ! فحدُّوها .

— ٩ —

«بلى ذلك حكاية عن امرأة شكت له مسألة جنسية مع زوجها، لم نر مايدعو إلى ذكرها هنا ، لإفحاشها ولاشتراكها فى الدلالة مع ما سقناه من الحكايات الأخرى» .

---

(١) هذه الحكاية والحكايات التى تليها منقولة من النسخة الخطية الموجوده بدار الكتب المصرية ضمن مجموعة برقم ١٩٤ وهى المجموعة التى سبقت الإشارة إليها .

(٢) كذا بالأصل .

— ١٠ —

« ثم يلى ذلك أيضا حكاية له مع جارية ، لم نشأ أن نذكرها ، لأنها أشد إفحاشا من الحكاية السابقة » .

— ١١ —

ويحكى أن ولده اشترى لنفسه بغلا بألف درهم ، وعرضه عليه ، فقال : هذا غالى ! فرآه بعض المباشرين ، فعلم منه أن غرضه وقع فيه ، فدخل معه على أبيه ، وقال : يا خوند[1] لأى شىء رسمتم برد هذا البغل ؟ فقال : لأنه غالى بألف درهم . فقال : يا مولانا اشتريناه بتسعمائة وتسعة وتسعين . فقال : إن كان هكذا فما هو غالى ! !

ولنا على كتاب السيوطى هذا ملاحظات :

فأولاها : أننا نراجع كتاب النجوم الزاهرة الذى أحالنا عليه السيوطى ، فلا نجد فيه كلاما كالذى أورده هذا المؤلف ، من أن صلاح الدين كان يعلم من بهاء الدين قراقوش عدم الفطنة والنباهة ، ومع ذلك فقد كان يفوض إليه أمر القاهرة ، مع مشاركة بعض أولاده معه فى ذلك . . الخ ما جاء فى هذه العبارة .

والثانية : أن بهاء الدين قراقوش ، لم يكن وزيرا لصلاح الدين ، ولم يكن لذلك يحمل لقب الصاحب . وهو لقب لم يلقّب به رجل قبل صفى الدين ابن شكر وزير العادل

والثالثة : أن الحكاية السابعة من الحكايات التى نقلناها عن السيوطى ، تصف بهاء الدين قراقوش بالسلطان ، وفى ذلك أيضا من الغرابة والجهل بالتاريخ ما فيه . . .

---

(١) لفظ تركي كثير الورود على ألسنة الأمراء وغيرهم فى العصر الأيوبى ، وذلك فى مكان أخى ونحو ذلك .

والرابعة وهى الأخيرة : أن صورة الأمير بهاء الدين قراقوش فى كتاب السيوطى، أقل شناعة من صورته فى الكتاب الذى نسب إلى ابن مماتى ، ذلك أن السيوطى حرص على أن يورد حكاياته بحيث تطابق ما وصف به بهاء الدين قراقوش ، من أنه رجل سريع الانقياد إلى الخير ، ولكنه لاحظَّ له من الذكاء ، أو الفهم[1] .

وندع كتاب السيوطى كما تركنا من قبلُ الكتاب الذى نسب إلى ابن مماتى ، فنجد أن من الكتب الفكاهية التى أُلفت كذلك حول قراقوش كتابا عنوانه ، (الطراز المنقوش ، فى حكم السلطان قراقوش) ، وفى هذا الكتاب الأخير ، طائفة من الحكايات التى ورد بعضها فى الكتابين السابقين ، وفيه كذلك طائفة لم تذكر بهما ، وهاك أمثلةً منها :

— ١ —

حكى أن جماعة من الفلاحين جاءوا إليه (إلى قراقوش) وشكوا إليه من جهة خراج القطن ، وقالوا له : يا مولانا السلطان . البرد شوَّش على القطن هذه السنة ، وأنت تفرج عنا وتسامحنا من بعض المال .

فكان من جوابه لهم بعد سكوت طويل :

لأى شىء لما رأيتم البرد كثير ، ما زرعتم مع القطن صوف لأجل ما يدفئه ، ولكن أنتم مستقلون بالحكم والزراعة ، ولم تفتحوا أعينكم لخدمة أستاذكم . أين المشاعلى يضرب أعناق الجميع ؟ فلم يقدر أحد من جلسائه ينقم عليه ذلك . !

— ٢ —

ودخل عليه رجلان ، وادعى أحدهما على الآخر أنه عضَّ أذنه ، فسأله عن ذلك ، فقال : بل هو الذى عضَّ أذن نفسه .

(١) غير أن الحكاية الخامسة من حكايات السيوطى تدل على ذكاء قراقوش ، وهى فى الوقت نفسه مثيرة للضحك فليراجعها القارىء .

فقام السلطان ودخل الحريم ، وجلس على كرسى ، وصار يلتفت ليعضّ أذنه ، فما وصل إليها ، ومال به الكرسى ، فوقع على يده فانكسرت . فخرج وهو بهذه الحالة ، وأمر بضرب المدعى عليه ، وقال : أنت الذى عضيت أذن الرجل هذا ، وكسرت ذراعى زيادة على ذلك !

* * *

وخلاصة مانلاحظه هنا كذلك ، أن هذه الحكايات تصف قراقوش بأنه سلطان ، ولكنها تمعن فى وصفه بالبله والعته ، بأكثر مما وصفته الحكايات التى نسبت إلى ابن مماتى نفسه .

نظرة فى كتاب الفاشوش

نصّ مؤلف الكتاب على أنه إنما «صنف كتابه لصلاح الدين ، عسى أن يريح منه المسلمين » . ومعنى ذلك أن الكتاب كما تدل عليه هذه العبارة يرجع تاريخ تصنيفه إلى عهد صلاح الدين ، وأن الحديث فيه موجَّه إلى هذا السلطان العظيم ، ضد صديقه الأمير بهاء الدين قراقوش .

وإن الباحث ليعجب مع هذا كيف ظهر هذا الكتاب فى حياة صلاح الدين ، وهى فترة شهدت عظمة الأمير بهاء الدين ، وفيها ساهم هذا الرجل كما رأينا فى إنشاء الدولة الأيوبية من وجوه عدة : فهو فى مرة نائب عن السلطان صلاح الدين، وهو فى أخرى مكبٌّ على عمله فى بناء الأسوار والحصون ، وهو فى الثالثة ذلك الجندى الذى لا يبالى الحرب ولا الأسار ، ولا يفلُّ من عزمه الحديدُ ولا النار ، ولا الجوع ولا الحصار ، ولا هذه المصائب التى مرَّت به فى عكاء بنوع خاص .

وأخرى يعجب لها الباحث كذلك ، هى عدم مطابقة النوادر التى اشتمل عليها كتاب الفاشوش ، وبُعدها كل البعد عن أخلاق الأمير قراقوش ؛ فأين النقد السياسى والخلق الذى نراه فى كتاب كهذا ؟ لقد كان على مصنفه أن يقع من

غريمه على مواطن الضعف فى خلقه ، أو فى عقله ، أو فى طريقة حكمه ، ثم يأتى بالنوادر التى تصف هذا الضعف ، ليضحك الناس منه .

ولكن النوادر التى اشتمل عليها هذا الكتاب الصغير ، لا تمسُّ جانبا حقيقيا واحدا من جوانب الأمير ، ولا تصف ناحية صحيحة واحدة من نواحى نقصه أو ضعفه . ونحن نعرف أنَّ مما أُخذ عليه مثلا ، ميله إلى الجد وإلى العنف ، فأين جهد الكاتب هنا فى تصوير هذه الناحية من خلقه ، تصويرا يشوِّه هذا الجد ، ويبعث على السخرية منه ؟ ونحن نعرف أن مما أخذ عليه أيضا أنه كان كثير اللجاجة والخصومة ، فلا يقرّ مبدأ المناقشة فى الأمور ، ولا يحتمل الإصغاء إلى جدل من كبير أو صغير ؛ وله رأىٌ فى معاملة السوقة والعامة ، هو أخذهم جميعا بالقهر وبالقسوة ؛ وهكذا فعل بالأسرى وبالعامة الذين سخَّرهم فى بناء الأسوار والحصون ؛ وعذره فى كل ذلك هو الحرص على إنجازها فى الوقت الذى أراده صلاح الدين ؛ فأين محاولة ابن مماتى فى بيان هذه الطبيعة ، وأين استفادته من هذه الطريقة ؟ وأين عرضه لها فى صورة تدعو إلى الزراية ؟ وقد كان فى استطاعته أن يجد فى طريقة تسخيره للناس مادة للهجاء والازدراء ؛ ومن يدرى لعله كان يفلح فى إقناع الخاصة من الأمراء والكبراء ؛ بأنه على حق فى انتقاد هذا الرجل الظالم ، حتى يردُّوه عن ظلمه ، إن صحَّ أنه أخذ الناس بالظلم إلى هذا الحد .

ولكن الكتاب كله على اختلاف نسخه وصوره ، ليس فيه مايدل على شىء من ذلك . وأكثر من ذلك أن هذه الأوصاف التى وصف بها الأمير ، أشبه شىء بالصفات التى خلعها الناس على « جحا » ؛ فهى صفات يمكن أن تنطبق على كل إنسان يوصف بالشذوذ ؛ وهى فى ذلك أشبه شىء بالثوب الذى يسع كل جسم

ويدخل فيه كل رأس ، وما هكذا تكون السخرية ولا النقد ؛ ولا هكذا يكون الهجاء السياسى والاجتماعى فى الشعر أو النثر .

على أن فى الكتاب فوق هذا كله نادرة أو اثنتين منسوبتين إلى قراقوش ، حدثتا له مع جارية من جواريه ، مع أننا نعرف من تاريخه أنه كان رجلا خَصِيًّا !

ومعنى ذلك أن مصنف الكتاب نسى حتى هذه الصفة ، التى تتصل بخلقة الأمير ، فنسب إليه عملا لا يتفق وهذه الخلقة !

ثم فى الفترة التى عاش فيها الأمير بهاء الدين قراقوش ، وعاش الكاتب الذى صنف كتاب الفاشوش — وهى الفترة التى نعمت بالقاضى الفاضل ، والعماد الأصفهانى ، وابن سناء الملك ، ورجال هذه الحلْبة ، عاش كذلك رجل أديب هو « الوهرانى » ؛ أتى إلى مصر من بلاد المغرب فى طلب وظيفة أُستعان فيها بالقاضى الفاضل ، ولأمرٍ ما لم يشأ الفاضل أن يعينه عليها ، فما كان من الوهرانى إلاَّ أن كتب طائفة من الرسائل اللطيفة ؛ سخر فيها من رجال الدولة الأيوبية ، وعلى رأسهم القاضى الفاضل ، وجاءت هذه الرسائل التى كتبها الوهرانى مرة على شكل أحلام أو منامات ، وأخرى على شكل حكم وأمثال وحكايات ، وثالثة أجرى الكلام نفسه على لسان بغلته التى كان يركبها الخ .

وهكذا استطاع الكاتب المغربى أن ينال من سادة مصر وكبرائها ، بأسلوب أقل ما يوصف به أنه أسلوب لطيف رشيق ؛ على حين عمد الكاتب المصرى إلى أسلوب آخر بسيط هو أسلوب « التشنيع » ؛ وسنعرض فيما بعد لشرح هذا الأسلوب الأخير ، ونوضح قيمته بالقياس إلى غيره من الأساليب الأخرى .

وأيًّا ما كان الأمر ، فالذى نرجحه فى كتاب الفاشوش أنه لم يعمل عمله وقت ظهوره على عهد صلاح الدين ، فلا أثَّر هـذا الـكتاب فى نفس السلطان العظيم ، ولاأراح هذا السلطان المسلمين من بهاء الدين ؛ ولا عوَّل على هذا الحادث الأدبى رجلٌ كالقاضى الفاضل ، ولا رفع السلطان يد قراقوش من العمل الذى كلَّفه إياه .

أما الزمن الذى أرجح أنه أفاد من كتاب الفاشوش فهو الزمن الذى تلا موت الملك العزيز ولد السلطان صلاح الدين ؛ أعنى فى الفتنة التى حدثت على عرش العزيز وتولية ابنه المنصور ؛ وكان المنصور صبيا ، فاحتاج الأمر إلى أن يكون له أتابك ؛ وكان العزيز نفسه قد أوصى أن يكون قراقوش هو الأتابك ؛ غير أن هذا الأمر لم يصادف هوى من نفوس كبار الجند ، وإذ ذاك استدعوا الملك الأفضل — أخا الملك العزيز — وكان ابن مماتى ممن اشتركوا فى استدعائه يومئذ . والظاهر أنه هو الذى وصف قراقوش فى مجلس من مجالس المؤامرة التى دُبرت ضده ، بهذه العبارة ، وهى قوله : « إنه مضطرب الرأى ، ضيق العَطَن » . وهو وصف ذكرته المراجع التاريخية الـكبرى و إن لم تنسبه إلى قائله .

ومعنى ذلك أن كتاب الفاشوش هو من وحى رجل كابن مماتى فى ظرف من الظروف الخاصة ، وأن السياسة أفادت منه كثيرا فيما بعد .

ومن أجل ذلك لا أرانى أميل إلى الرأى الذى ذهب إليه الأستاذ كازانوڤا من أن كتاب الفاشوش « يعتبر أثراً لحادث خطير ، هو سقوط الفاطميين ، وأنه يعتبر المظهر الأخير ، لبغض مصر وأهلها لـكل فاتح لبلادهم ، وهو بغض أيقظه فى نفوسهم انهيار الخلافة الفاطمية وقيام الدولة الأيوبية ، التى أعادت الأمر فيها إلى بنى العباس » .

والظاهر أن الذى شجع الأستاذ كازانوفا على هذا الرأى أمران : —

أولهما : أن بالصعيد جهات مثل قُوص وأُسيوط (وهى المدينة التى ولد فيها ابن مماتى) كان أهلها يستمسكون بمذهب الدولة الفاطمية ، يدل على ذلك بعض النقوش التاريخية التى نراها فى طائفة من المساجد ، يرجع تاريخ إنشائها إلى أوائل العصر الأيوبى .

وثانيهما : أن الفاطميين (عدا الحاكم بأمرالله) عرفوا بالتسامح الدينى الشديد مع المسيحيين ، ومع غيرهم من الطوائف الدينية الأخرى ؛ وذلك بخلاف بنى أيوب ، فإنهم لم يكونوا متساهلين مع هـذه الطوائف ؛ بل قسوا فى أكثر الأحيان عليها ، وأجبروا الـكثيرين منهم على الدخول فى الإسلام .

فلعله من أجل ذلك ظن الأستاذ الباحث أن ابن مماتى كان من أولئك الموتورين من دولة صلاح الدين ، وأنه كان يضمر لها الحقد والـكراهية فى قلبه ؛ برغم أن هذه الدولة أكرمته وأعانته ، ثم ما زالت به حتى أسندت إليه منصبا من أكبر مناصبها .

ثم من أين أتى الظن بأن أهل مصر نظروا إلى صلاح الدين على أنه هادم لقوميتهم ، محطِّم لمصريتهم ، راجع بهم القهقرى ، إلى حيث يكون قطرهم تابعا للخلافة العباسية ؟

من أين أتى الظن بأن أهل مصر نظروا إلى الرجل هذه النظرة ؟ وهم يعلمون عن صلاح الدين أنه لم يفعل أكثر من أن دعا للخليفة السنى على منابر القاهرة وغيرها من الحواضر الإسلامية ، وأنه بعدُ مستقل كل الاستقلال عن هذه

الخلافة العباسية السنية . وأكثر من هذا وأبعد منه خطراً فى رأى مصر وأهل مصر، أنهم نظروا إلى صلاح الدين على أنه بطل المسلمين، وصاحب الفضل الأكبر فى إنقاذهم من أيدى الصليبيين ، فى وقت كانت فيه كل من الخلافة العباسية العتيقة فى بغداد ، والخلافة الفاطمية الفتية فى مصر ، عاجزة كل العجز عن أن تدرأ عن نفسها وعن الإسلام خطر الفرنج .

وأكثر من هذا كله دلالة على بُعد الفكرة التى ذهب إليها الأستاذ كازانوفا ، أن المذهب الشيعى نفسه كان طارئا على مصر، دخلها غريبا ، وخرج منها غريبا ، ولم يلبث أهل مصر بشىء من الجهد أن عادوا سراعا إلى مذهب أهل السنة ؛ وهو المذهب الذى قدَّروه وأحبُّوه ، وبقى معهم إلى يومنا هذا .

ومهما يكن من أمر هذا الكتاب ، ومهما تكن البواعث التى دعت إلى تصنيفه إذ ذاك ، ومهما تكن الطرق التى استفادت السياسة بها منه ومن مُصنِفه ، فالذى حدث هو أن هذه النوادر القليلة المضحكة ، نالت من سمعة الأمير بهاء الدين قراقوش ، وغضَّت حقيقة من شأنه ، وغيَّرت من رأى الناس فيه ، وفى عقله وخلقه . وسواء أكان هذا التغيير الذى حدث فى رأيهم ، وقع فى حياة صلاح الدين ، أم وقع بعد موته ، فإن من الحق لصاحبه الأمير أن ينتصف لنفسه ، وأن يرفع دعواه إلى محكمة التاريخ الصحيح . وقد فحص التاريخ نفسه هذه القضية ، وآن له أن ينطق بالحكم الذى وصل إليه .

حكم التاريخ

سمعت أيها القارىء ، قصة هذا الأمير العظيم بهاء الدين قراقوش ، ونظرت إلى صحيفة أعماله ؛ ثم استعرضت ما جاء فى كتاب ابن مماتى من حكايات ، أريد بها ذمه ، والسخرية منه ، والزراية عليه ، وليس شك فى أنك استمتعت بما فى هذه الحكايات القصيرة كلها من لذة . ولكنك فى الوقت نفسه وقفت تحكم على هذا الأمير ، فلم تتردد فى أن تحكم له بالعظمة والصبر والجلد والأمانة وعلو الهمة ؛ وذلك ما اعترف به السلطان صلاح الدين ، فكان كثيرا ما يثنى على همة صاحبه ، وينظر إليه على أنه نعمة من نعم الله على دولته .

وذلك ما شهد به القاضى الفاضل ؛ فكان لا يدع رسالة يأتى فيها ذكر قراقوش ، حتى يملأها مدحا وثناء عليه ، وعلى جده ونشاطه وصبره وإخلاصه وأمانته .

ثم ذلك ما عرفه الصليبيون ، فقالوا عن شخصية بهاء الدين قراقوش :

« إنها شخصية رجل محارب ، له روح غريبة ، أدهشت الصليبيين ، وأثارت إعجابهم بشجاعة صاحبها ، ومهارته وقدرته ، حتى نظروا إليه على أنه جندى وقديس فى وقت معا » .

وانظر إلى كلمة العماد الأصفهانى فى وفيات سنة سبع وتسعين وخمسمائة ، وهي السنة التى مات فيها بهاء الدين قراقوش حيث قال :

وفيها توفى الأمير بهاء الدين قراقوش ، وهو من القدماء الكرماء ، وشيوخ الدولة الكبراء ، أمير الأسدية ومقدمها ، وكريمها ومكرّمها .

ولم أر غيره خصيا لم تقاومه الفحول ، ولم يؤثر فى محال مأثراته المحول ، وله فى الفتوحات والغزوات ، مواقف معروفة ، ومقامات موصوفة ؛ وهو الذى احتاط على القصر ، حين استتبت على متوليه أسباب النصر ، وذلك قبل موت العاضد بمدة .

ولما خُطب لبنى العباس بالديار المصرية ، تسلم القصر بما فيه ، واستظهر على أقارب العاضد و بنيه ، وتولى عمارة الأسوار المحيطة بمصر والقاهرة ، وأتى فيها بالعجائب الظاهرة .

وكان معاذ الالتجاء ، وملاذ الارتجاء ، غير أنه نسب إلى اللجاج لشدة ثباته ، وفرط جموده ، ولا يكاد يعجم لصلابة عوده . . . الخ .

ولعل فى العبارة الأخيرة ، وهى وصف العماد الكاتبْ له باللجاج الذى هو شدة الخصومة ، وبالثبات والعناد والصلابة والبعد عن المرونة ، ما يوضح لنا شيئا من أخلاق الأمير بهاء الدين قراقوش ، ويبين السبب الذى من أجله لم يكن محببا إلى بعض النفوس ، وهو أنه كان رجلاً عنيفا فى خصومته ، لا يدارى ولا يداهن ، ولا يعالج الأمور برفق ولا مواربة . والجاد من الناس يخافونه ويرهبونه ، إلا أنهم يكرهونه ، ويضيقون به ، ويبسطون ألسنتهم فيه ، حتى إذا أفل نجمه ، أو فلّتْ شوكته ، أو ضعفت قوته ، انقلبوا عليه ينهشون

عرضه ، ويشوهون سمعته ، ويُعفُّون على آثاره ، ويودون لو استطاعوا أن يمسحوا اسمه من التاريخ .

وبعد ، فقد فرغنا من بحث هذه القضية من قضايا التاريخ ، وشعرنا بأننا نجحنا فى إنصاف هذا الرجل العظيم بهاء الدين قراقوش ، وذلك من غريمه الذى كتب فيه هذه القصص ، وهو ابن مماتى .

وبحسبنا هذا البحث فى الكتاب من الناحيتين التاريخية والعلمية ، ولننتقل من ذلك إلى البحث فى الناحية الأدبية . والذى يعنينا من هذه الناحية هو موضوع هذه النوادر ؛ والموضوع هنا هو السخرية من شخص ما ، كائنا من يكون . ولكن ما نوع هذه السخرية التى نراها ؟ أهي سخرية من النوع الراقى ؟ أم هى سخرية من نوع غير راق ؟ ذلك ما نريد أن نتعرض لبحثه باستيفاء فى الفصل الآتى .

السُّخْرِيَةُ فِى الأَدَبِ

أنواع السخرية فى الأدب

— ١ —

نريد فى هذا الفصل أن نتحدث عن بواعث السخرية أولا ، وعن ضروبها فى الأدب ثانيا ، وعن الفروق الواضحة بين كل ضرب منها والأضرب الأخرى ؛ فإذا فرغنا من ذلك تحدثنا فى كلمة مستقلة عن السخرية فى الأدب العربى خاصة ؛ فإذا انتهينا من ذلك انتقلنا منه إلى الحديث عن السخرية فى الأدب المصرى ، كما تظهر لنا هذه السخرية فى الكتاب الذى بين أيدينا — وهو كتاب ابن مماتى — بوجه أخص .

***

قد يغضب الأديب ويثور ، وتشتد الخصومة بينه وبين من أثار فى نفسه هذه الخصومة ؛ فيعمد أحيانا إلى السباب ، ينال به من خصمه ، ويشفى قلبه من هذا الحقد الذى يشعر به نحوه ؛ وهذا ما يسمى فى الأدب بالهجاء .

وقد يغضب الأديب ويثور ، ويُؤثر أحيانا أن يخفى فى نفسه الغضب والثورة ، ويعمد إلى ضبط أعصابه ، وإلى تكلف الضحكة أو البسمة ، فينال

من خصمه بطريقة أخرى ، هى هذه الطريقة التى يعدل فيها عن الهجو والسباب ، إلى لون آخر من ألوان الأدب ، يسمى السخرية .

ومعنى ذلك أن الهجاء أدب الغضب المباشر ، والثورة المكشوفة ؛ وأما السخرية فأدب الضحك القاتل ، والهزؤ المبنى على شىء من الالتواء أو الغموض . ولا تسل بعد عن أسباب الغموض فى بعض أنواع السخرية ، فهى كثيرة : منها حرص الأديب على حياته أحيانا ، ومنها قدرته على إخفاء غضبه أحيانا ، ومنها علو كعبه فى العلم والثقافة ؛ والعلم يشحذ الذكاء ، والذكاء يسعف صاحبه فى هذه المواطن ؛ فترى الأديب ينال من خصمه بطريقة ملتوية تقتله ، بأشد مما لو ناله بطريقة ساذجة ؛ وبين الهجاء والسخرية وشائج شتى تجعل كل واحد منهما (على كثرة الفروق بينهما) قريبا من الآخر ، بحيث يمكن أن ننظر إليهما على أنهما ينبعثان من نفس واحدة ، هى النفس الحانقة ، أو صادران عن هدف واحد ، هو الرغبة فى الإيذاء والانتقاص .

أما الأمور التى تبعث على السخرية وحدها ، فتوشك أن تتلخص كلها فى أمر واحد ، هو «الغرابة» ، كرؤية الأقزام فى بلاد العماليق ، أو رؤية السود فى بلاد البيض ، أو كرؤية إنسان ما وهو يتردى فى حفرة عميقة على غرة منه ، وهكذا .

والضحك من الناس فى كل حالة من هذه الحالات ، قد يكون خطأ فى حقيقة الأمر ؛ فليس للعملاق ذنب فى طوله ، ولا للأسود ذنب فى سواده ؛ بل إنه أولى أن يثير فينا إشفاقا عليه ، ورثاء لحالته ؛ ولكن الذى يضحك الناس من كل ذلك هو الغرابة ، والغرابة هنا معناها انعدام التكييف فى الحياة الواقعة .

وقد تزيد هذه الغرابة التى تثير فينا الضحك إلى أن تصل أحيانا إلى درجة الشذوذ ، أو الوضع المقلوب ، أو البعد عن الطبيعة ، وذلك مثل أن ترى رجلا يتشبه بالنساء ، أو امرأة تتصرف تصرف الرجال ، أو شيخا يتصابى ، أو صبيا يتكلف أخلاق الكبار ، أو كأن ترى حا كما يركب رأسه ، أو جاهلا يهرف بما لا يعرف ، أو قسيسا يتدلَّه فى الحب ، أو عجوزا تلتمس صبيا لها ، أو بخيلا يبالغ فى الحرص على المال ، أو جبانا يسرف فى الحرص على الحياة .

والسخرية فى كل هذه الحالات ، قائمة على فكرة المقابلة بين الحق والباطل ، بين الصدق والكذب ، بين الصحة والزيف ، بين الكمال والنقص ، بين الطبع والتكلف ، أو بعبارة أخرى مختصرة : بين ما يكون ، وما ينبغى أن يكون .

وللسخرية نفسها فى الأدب العربى ، كما فى الآداب الأوروبية ، ألفاظ كثيرة ، لا يدل كل واحد منها على نفس المعنى الذى يدل عليه الآخر . ولا بأس أن نقف هنا عند طائفة من هذه الألفاظ نحدد مدلولها ، ونوازن بينها ، ونعتمد فى هذا كله على مجرد الاجتهاد فى الرأى . وقصدنا من ذلك كله أن نعرف فى نهاية الأمر أين نضع السخرية المصرية ، التى رأينا مثلا منها فى الكتاب الذى بين أيدينا .

ومن هذه الألفاظ التى نقف عندها ، لفظا « المُزاح » أو « الهزل » Comique ، ولفظا « الفكاهة » أو « التندر » Humour ، ولفظا « اللذع » أو « التهكم » Ironie .

فأما المُزاح أو الهزل ، فالغاية منه دائما هو إثارة الضحك ، وليس من غايته مطلقا أن يكشف عن حقيقة من حقائق النفس أو الخُلق . وهو ، أى الهزل ، على

ضربين : فمنه ما هو خفيف ومقبول ، ومنه ما هو ثقيل ، وليس إلى احتماله من سبيل . ولعل هذا الأخير هو ما يسمى فى الأدب الفرنسى باسم La Grosse Plaisanterie .

والمُزاح أوالهزل هو آلة الدهماء فى سخرهم ، وأداة العامة فى ضحكهم وازدرائهم ، وهو لهذا لا يعتمد على علم أو ذكاء أو ثقافة ؛ لأن لغة الشعب نفسه لا تقوم على علم أو ذكاء أو ثقافة . والشعب حين يلهو بشخص أو جماعة يعتمد فى لهوه دائما على السذاجة والصراحة ، ويلقى فى وجوه من يلهو بهم طائفة من النكات المكشوفة ، ويرميهم بقوارص من الكلم الشديدة ، لاتسعفه فى ذلك فطنة المثقفين ، ولا ذكاء المستنيرين . وليس بُدٌّ لمن يريدون أن يكتبوا أدبا ساخرا للشعب ، من أن يسلكوا فى أدبهم هذا الطريق ، الذى يفهمه الشعب .

ولعل من الأمثلة على هذا النوع الساذج من أنواع السخرية فى الأدب المصرى الحديث ، مانراه فى مجلات «أبو نظارة» ، «والمسامير» ، «والكشكول» ، «وآخر ساعة» . وقد يكون من الأمثلة على هذا النوع الساذج من السخرية فى الأدب الفرنسى ، تلك القصص التي أطلق عليها اسم Fabliaux وهى قصص شعرية صغيرة ، ظهرت فى فرنسا فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد ، ونسبت إلى كتاب مجهولين ، ولم يكن الغرض منها سوى النيل من الأشخاص الذين كتب فى حقهم هذا الأدب البذىء .

أما أدبنا العربى القديم ، فهو كغيره من الآداب الأوربية القديمة ، مزدحم بهذه النماذج البذيئة من الأدب المقذع ، والسخرية المريرة ، وبنوع خاص فى الأوقات التى يسيطر فيها روح الشعب على الأدب ، والشعب نفسه قليل الحظ

من التهذيب والتثقيف ، وإذا غلبت روح الشعب على الأدب ، شاع فيه ميل إلى الإيذاء والتجريح ، كما نرى ذلك واضحا فى القرن الثانى للهجرة ، وهو القرن الذى شهد أكبر عاصفة هجائية مرت بالأدب العربى ، ونعنى بها المعركة التى دارت بين فحول الشعراء كالفرزدق ، وجرير ، والأخطل . وسنعود إلى الكلام على ذلك عند ما نتحدث باختصار عن بعض الأطوار التى مرَّ بها هذا الهجاء العربى .

* * *

وأما النوع الثانى من السخرية وهو الفكاهة أو التندر Humour فليس الغرض الأساسى منه هو الإضحاك ، وإن أضحك فلأنه مضطر إلى هذا الإضحاك ؛ وهو استعداد فى الأديب الذى ينتقد الناس فى شىء من التحفظ والحياء ؛ أو هو قدرة على كشف النفس البشرية فى وضوح وجلاء ؛ ثم هو ضرب من الرثاء لأخطاء الفرد والمجتمع ، وطريقة للتنفيس عن الصدور التى شحنت غيظا من الفرد ومن المجتمع . ولكن هذا النوع من السخرية لا يقوم على الغموض والإبهام ، وإنما يقوم على مهارة الأديب وذكائه وحضور بديهته وغير ذلك من الأمور التى لا يحسن الشعب نفسه شيئا منها .

ثم إن السخرية التى من هذا النوع ، كما تكون سخرية الفرد ، وكما تكون سخرية بالجماعة ، فكذلك تكون سخرية بالفكرة ، وتكون سخرية بالقصيدة . ومن الأمثلة على التندر بالفكرة ، ما فعله « ڤولتير » فى رواية « كانديد » Candide ، وهى حكاية عن شخص بهذا الاسم ، قام بسياحات كثيرة لاَحَظَ فيها معايب الأفراد والجماعات ، وكان يقول مع ذلك أنها ليست معايب ، وإنما هي حسنات ، لأن أستاذه Danglos علَّمه أن كل شىء فى الدنيا حسن ، وأنه ليس

فى هذا العالم كله شىء يوصف بأنه قبيح ، وأنه لهذا «على خير حال ، فى خير عالم ممكن » .

وبهذه الطريقة اللطيفة أخذ فولتير ينقد جماعة الفلاسفة المتفائلين ، الذين يرون أن العالم كله خير ، كما راح يندد بأفكارهم ، ويسخف عقولهم ، ويزرى بأحلامهم .

والأمثلة على هـذا النوع من السخرية كثيرة فى الأدب الإنجليزى ، وخاصة فى أدب رجلين من أعلام هذا الأدب ، هما « سويفت » Swift وفيلدنج Fielding . ولهذا الأخير بنوع خاص رواية بعنوان Jonathan Wild The Great هى قصة رجل لص انتهت حياته بالشنق . وفيها يندد الكاتب بحكومة من حكومات انجلترة ، هي حكومة « ولبول » Walpole ، وينقد مسلكه ومسلك زوجه البغيّ ، ويرميها بتهمة العبث بمصالح الدولة ، وبتهمة استغلال مركزها كزوجة لرئيس الوزراء ، فى سبيل الوصول إلى أغراضها السيئة .

وهنا يميز الكاتب الانجليزى بين نوعين للعظمة : هما العظمة الصحيحة ، والعظمة الزائفة ، فيقول أن الأولى هى التى تعتمد على أسس ثابتة من الخير ومن النفع ، وترمى إلى صلاح الإنسانية وخلاصها من كل شر . ولـكن الناس مع هذا يخلطون بين هذين النوعين، ولو كان صحيحا ما زعمه بعضهم ، من أن من العظمة ما يعتمد على الشر ، لوجب أن ننظر إلى الإسكندر الأكبر وإلى قيصر وإلى نابليون ، كما ننظر إلى القرصان واللصوص والسفاكين وقطاع الطرق .

فنقول عن أولئك الملوك إنهم عظماء ، لا لأنهم بنوا وشيدوا ونشروا حضارات ، وغيروا وجه الحياة ، وأعانوا على تقدم الإنسانية ، ولـكن لأنهم

خربوا ودمروا ، وثلّوا عروشا ، وأسقطوا دولا ، وأذلوا ممالك ، وأراقوا دماء .

وليس فرق بين «فيلدنج» هذا وبين « سويفت » صاحب قصة « روبنسن كروزو » ، إلا أن الأول متفائل ، لا يفقد الأمل فى إصلاح الجماعة ؛ أما الثانى فأدنى إلى التشاؤم ، لأنه مكتف بالسخرية من الجماعة ، وإظهار الرثاء لها ، والإشفاق من فسادها ؛ يظهر لنا ذلك كله من كتابه « رحلات جوليفرز » Gullivers' Travels وفيه نقد للمجتمع على لسان أقزام عرفوا كيف يضعون أيديهم على مساوئه .

أما أدبنا العربى ففيه أمثلة كثيرة أيضا من السخرية التى من هذا النوع ، منها : ما حكى عن الجاحظ من أنه ألف كتابا فى نوادر المعلمين ، وما هم عليه من الحمق والغفلة ؛ ثم رجع عن ذلك وعزم على تقطيع الكتاب ، ثم عاد إلى كتابته ، وأخبر بذلك عن نفسه ، قال :

دخلت يوما مدينة ، فوجدت فيها معلما فى هيئة حسنة ، فسلمت عليه ، فردّ علىّ أحسن رد ، ورحّب بى ، فجلست عنده ، وباحثته فى القرآن ، فإذا هو ماهر فيه ، ثم فاتحته فى الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب ، فإذا هو كامل الأداة . فقلت : هذا والله مما يقوى عزمى على تقطيع الكتاب .

ثم كنت أختلف إليه وأزوره ، فجئت يوما لزيارته ، فإذا الكتّاب مغلق ، ولم أجده . فسألت عنه فقيل : مات له ميت ، فحزن عليه ، وجلس فى بيته للعزاء . فذهبتُ إلى بيته ، وطرقت الباب ، فخرجت إلىّ جارية وقالت : ما تريد ؟ . قلت : سيدك . فدخلت وخرجت وقالت : بسم الله .

فدخلت إليه ، وإذا به جالس ، فقلت : عظم الله أجرك ، لقد كان لكم

فى رسول الله أسوة حسنة ، كل نفس ذائقة الموت ، فعليك بالصبر . . . الخ .

ثم قلت له :

هذا الذى توفى ولدك ؟ قال : لا

قلت : فوالدك ؟ قال : لا

قلت : فأخوك ؟ قال : لا

قلت : فزوجتك ؟ قال : لا

قلت : وما هو منك ؟ قال : حبيبتى !!

فقلت فى نفسى : هذه أول المناحس .

وقلت له : سبحان الله ، النساء كثير ، وستجد غيرها .

فقال : أتظن أنى رأيتها ؟

قلت : وهذه منحسة ثانية !

ثم قلت : وكيف عشقت من لم تره ؟

قال : اعلم أنى كنت جالسا فى هذا المكان وأنا أنظر من الطاق ، إذ رأيت رجلا عليه بُرد وهو يقول :

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ردى علىّ فؤادى أينما كانا (الأبيات)

فقلت فى نفسى : لولا أن أم عمرو هذه ما فى الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر ، فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مرّ ذلك الرجل بعينه وهو يقول :

إذا ذهب الحمار بأم عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فقلت إنها ماتت ، فحزنت عليها ، وأغلقت الكتّاب ، وجلست فى الدار !

فقلت : يا هذا ، إنى كنت ألفت كتابا فى نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه . والآن قد قويت عزمى على إبقائه ، وأول ما أبدأ أبدأ بك إن شاء الله . !

* * *

من هذه الأمثلة السابقة ، نرى أن صاحب هذا النوع الثانى من السخرية ، وهو الفكاهة أو التندر ، ضاحك لا بغير قصد ، وإن كان فى ضحكه شىء من المرارة ؛ مرح بغير قصد ، وإن أخفى وراء مرحه وهَجًا من نار البغض والزراية ؛ من عادته أن يمنح حماقات الناس ابتسامة خفيفة ، وهى فى الوقت نفسه مؤذية كل الأذى لأصحاب هذه الحماقات السخيفة ، وهو ـ أى صاحب الفكاهة والتندر ـ يعمد فى فكاهته دائما إلى الواقع ، لا ينتقل منه إلى الخيال ؛ أو بعبارة أخرى لا يعنيه كثيرا أن يقابل فى سخريته بين الصور الواقعية والصور المثالية ؛ وهو فى هذا مخالف كل المخالفة لصاحب النوع الثالث والأخير من أنواع السخرية ونعني به «اللذع أو التهكم بطريق التورية» Irony .

والسخرية التى من هذا النوع الأخير تقوم على الغموض والمواربة ، أو تقوم على مانسميه فى البلاغة العربية بالتورية ؛ ثم إنها تقوم كذلك على فكرة المقابلة بين الواقع و بين المثل العالية .

ولذا كان هذا النوع من أرقى أنواع السخرية لأنه أصعب هذه الأنواع السابقة منالا ، وأدومها أثرا ، وأطولها بقاء ، وأكثرها قياما على الثقافة والعلم ، وانتقالا بالناس من الحقيقة إلى الخيال ، ومقابلة فى أذهانهم بين الواقع والمثال ؛ وصاحبه ليس هادئا دائما ، ولا باسما دائما ، ولا متكلفا للمرح دائما ؛ بل كثيرا

ما يكون عنيفا ، قادرا على إخفاء هذا العنف ، خائفا ، وإن حاول أن يقلل من شأن هذا الخوف ، شديد المراقبة للعيوب ، كثير التهافت على ذكر المساوئ ، يغذى فى نفسه هذا الميل عوامل شتى : من البغض ، ومن الحقد ، ومن الذعر ، ومن السخط ، ومن التقزز ، ومن الاحتقار الصارخ للفرد والمجتمع (١) .

ومع ذلك فالنوع الثانى من أنواع السخرية ، وهو الفكاهة أو التندر Humour أدنى إلى الأذواق عامة ، وأعلق بالنفوس عامة ، وصاحبه محبوب من الناس كافة ؛ لأنه يستطيع بابتسامة هادئة أن ينال غرضين اثنين فى وقت معا ، وهما : غرض النقد والرثاء من ناحية ، وغرض التسلية وإضحاك الجماهير من ناحية ثانية .

أما النوع الثالث — وهو اللذع أو التهكم ، ففيه تلاعب بالألفاظ ، وفيه ميل إلى استخدام المواربة وأسلوب الذم بما يشبه المدح وغيرها من الأساليب المعروفة فى البلاغة . ثم هو بعقول العلماء أشبه ، وإلى نفوسهم وأمزجتهم أقرب . ولذا يكثر هذا النوع الثالث من أنواع السخرية فى عصور الأدب العقلى ، كما حدث فى الأدبين الإنجليزى والفرنسى فى القرن الثامن عشر ، وهو القرن الذى شاع فيه هـذا اللون من ألوان الأدب ؛ كما يكثر فى فترات الصراعين السياسى

(١) وهناك ضرب من ضروب التهكم أو التورية Irony يطلق عليه اسم Sarcasm باللغتين الفرنسية والإنجليزية . والفرق بينه وبين التهكم هو أن التهكم يتناول السخرية بالحوادث Events وأما الثانى فهو سخرية تتناول الأحاديث Speaches . فإذا سمعت قولهم (سخرية القدر) فاعلم أنها بعض المقصود من كلمة التهكم ، لأنها سخرية من الحوادث التى يجريها القدر. أما السخرية التى تجرى دائما فى الأحاديث العامة والخاصة ، فهى بعض ما يعنيه الأوروبيون بلفظ « اللذع Sarcasm » . وفى هذا الأخير مرارة هى كل ما فى قدرة الأديب أن يشيعها فى الأدب ، وفيه لهيب هو كل ما فى وسعه أن يحرق به الخصم ، وعنصر الغموض فيه أقل منه فى التهكم أو التورية .

والفكرى ؛ لأنها فترات تميل إلى العنف وإلى الخوف ، الذى يبدو أحيانا من جانب الأدباء ، حرصا منهم على حياتهم ، أو ضنا بكرامتهم أن تذال على أيدى الجبابرة من ذوى البطش ، الذين تؤذى نفوسهم هذه السخرية .

ويقل هذا النوع الأخير وهو التهكم ، حتى ليكاد يختفى فى الأوقات التى يسيطر فيها الخيال أو العاطفة على الأدب . ولذلك لم يكن ملائما للأدب الرومانتى فى إنجلترة وفرنسا فى القرن التاسع عشر ، كما لم يكن يلائم الأدب الكلاسيكى فى إنجلترة وفرنسا فى القرن السابع عشر ؛ وإنما كان ملائما للأدبين الإنجليزى والفرنسى ، كما قلنا فى القرن الثامن عشر . ويكفى أن نذكر من أدباء هذا القرن فى إنجلترة رجلا مثل شارلز ديكنز Charles Dickens وهو من برع فى جميع أنواع السخرية ، وخاصة منها اللذع Sarcasm والتهكم بطريق التورية Irony ، ولعل من أشهر كتبه فى السخرية كتابه Pickwick Papers . وهو عبارة عن مجموعة من القصص ، تعالج كلُّ قصة منها نقصا فى المجتمع ، وتعتمد فى ذلك على اللغة الدارجة التى آثر استعمالها هذا الكاتب اللبق . ثم إن الشخصيات التى اصطنعها فى كتابه موصوفة بالتناقض إلى حد المبالغة . فالسمين من هذه الشخصيات التى أتى بها ، سمين فوق ما يجب ، والنحيف منها نحيف أكثر مما يجب ، والسفيه منها سفيه أكثر مما ينبغي ، والحليم حليم أكثر ما ينبغي وهكذا . ثم لا يكتفى ديكنز بكل ذلك ، حتى يجرى على ألسنة أشخاصه فى هذه القصص التى كتبها ، أقوالا بلهاء ، وأفعالا تثير الضحك والرثاء . وبهذه الطريقة البسيطة أخذ يعلم الناس دروسا كثيرة فى الحياة والأخلاق . والمهم أن من يقرأ أدب ديكنز يشعر شعورا عاما بأن روحه فى الكتابة أميل إلى التندر Humour

ولكن الطريقة التى سلكها فى أدبه أميل إلى التورية المضحكة ، أو التهكم الباسم Comic irony .

أما فى الأدب العربى ، فاللذع أو التهكم بالتورية كثيرا ما يرد فى أحاديث العامة والخاصة . ولو عرف الأدب العربى فن القصة كما ينبغى ، لبرع براعة نادرة فى هذا النوع الأخير من السخرية . ولذا لا نجد هذا النوع واضحا كل الوضوح فى أدبنا العربى . اللهم إلا إذا نظرنا إلى قصص كليلة ودمنة على أنها كتبت للسخرية بحكومة المنصور العباسى ، وهو الخليفة الذى اضطغن عليه ابن المقفع صاحب هذه القصص ، وانتقد مسلكه صراحة فى كتاب له اسمه « الصحابة » ، وانتقده خفية وتعريضا فى كتابه « كليلة ودمنة » . وسنعود إلى الاشارة إلى هذه المسألة مرة أخرى عند ما نتحدث بإيجاز عن الهجاء والسخرية فى الأدب العربى .

والخلاصة أننا نستطيع على كل حال أن نميز تمييزا واضحا بين لونين أو ثلاثة من ألوان السخرية فى الأدب عامة .

أولها : السخرية الشعبية ، وهى التى تعتمد كما قلنا على البساطة والسذاجة ، كما تعتمد على الجرأة والصراحة ، وفيها يستطيع الأديب أن يلقى فى وجوه الذين يسخر بهم ، بقطع من النكات المريرة ، لا يصطنع فيها اللغة التى تحتمل المعانى الكثيرة ، كما نرى ذلك فى التورية ، وإنما يصطنع فيها اللغة الجارحة والعبارات التى لا يجد الجمهور مشقة كبيرة فى فهمها ، وفهم الغرض الذى قيلت من أجله .

والثانية : السخرية المهذبة وهى على ضربين : ضرب يعتمد على الذكاء

والفطنة ، والصراحة والجرأة ، وهو التندر Humour . وضرب يعتمد على هذه الأمور كلها ، وعلى العلم والثقافة ، وعلى الغموض والتورية ، وهو اللذع Irony . ومعنى ذلك أن الأول أدنى إلى الصراحة ، والثانى أقرب إلى الابهام ، وأن الأول يكثر فى عصور الحرية السياسية أو الفكرية ، والثانى لا يكون إلا فى عصور البطش أو الكبت أو التضييق .

السخرية فى الأدب العربى

— ٢ —

فى الكلمة السابقة تحدثنا عن السخرية عامة ، والآن نتحدث عن تطور الهجاء والسخرية فى الأدب العربى خاصة . وسننتقل من هاتين الكلمتين الصغيرتين إلى بحث السخرية المصرية كما تبدو فى كتاب ابن مماتى بوجه أخص .

ونحن نعرف أن الهجاء العربى ظهر بظهور الشعر العربى فى الجاهلية ، دعت إليه أمور كثيرة ، يظهر أن من أهمها «النزعة القبلية» . ومن ثم غلب على الهجاء العربى الجاهلى هذه النزعة ؛ ولكن ليس معنى ذلك أن الهجاء الفردى لم يكن له وجود ما فى الشعر الجاهلى ، بل إن هذا الهجاء الفردى أيسر ما تدعو إليه الحياة نفسها فى كل زمان ومكان . وإنما الهجاء القبلى كان أسير وأشهر ، وكانت العناية به أشد وأظهر ، لأن الذى يعرفه العلم إلى يومنا هذا هو أن حياة العرب قبل الإسلام كانت تخضع لنظام القبيلة ، وأن حياة الفرد فى هذا النظام كانت أشبه بحياة النحلة فى جماعة النحل .

سئل أعرابى من عشيرة : لم كثر الحزم فيكم ؟ فقال : نحن ألف رجل ،

وفينا حازم واحد ، كلنا نطيعه ، فكأننا ألف حازم . ومعنى ذلك أن العرب لا تخضع إلا لنظام القبيلة ، ولا تدين بالطاعة إلا لشيخ القبيلة ، مصلحة كل فرد هى مصلحتها ، والضرر الذى يلحق بها إنما يصيب فى الواقع كل فرد منها . ولقد ظل العرب حتى بعد ظهور الاسلام ، يحتفظون لأنفسهم بهذا الشعور القبلى الذى ألفوه قبله .

قيل إن قوما من بني ذهل بن شيبان ، أغاروا على رجل من بني العنبر ، فأخذوا منه ثلاثين بعيرا ، فاستنجد الرجل بقومه من بنى العنبر ، فلم ينجده أحد منهم ، فأتى قبيلة أخرى هى قبيلة بنى مازن ، فركب معه نفر منها ، واستخلصوا له من بنى شيبان مائة بعير ، ودفعوها إليه ، فرجع الرجل إلى قومه يعيرهم بذلك فى أبيات له مشهورة ، تمنى فيها على نفسه أنه كان رجلا من بنى مازن لا من بنى العنبر ، فقال :

لو كنت من مازنٍ لم تستبحْ إبلى ... بنو اللقيطة من ذُهْل بن شيبانا
إذنْ لقام بنصرى مَعْشر خُشُنٌ ... عند الحَفيظة إنْ ذو لُوثةٍ لانا
قوم إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم ... طاروا إليه زُرافات ووُحدانا
لا يسألون أخاهم حين يندُبهمْ ... فى النائبات على ما قال برهانا

ثم انتقل الشاعر إلى ذم قومه ، والسخرية منهم سخرية لاذعة حقا ، فقال :

لكنَّ قومى وإن كانوا ذوى عدَد ... ليسوا من الشر فى شىء وإن هانا
يَجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ... ومن إساءة أهل السوء إحسانا
كأنَّ ربك لم يخلق لخشيته ... سواهمُ من جميع الناس إنسانا
فليتَ لى بِهِمُ قوماً إذا ركبوا ... شنُّوا الإغارة فرسانا ورُكْبانا

فانظر إلى هذه الأبيات الأخيرة كيف تصور لنا حياة جاهلية صحيحة ، وشعورا جاهليا صحيحا ، وخلقا جاهليا حقيقيا ، هو خلق أدنى إلى الشر ، وأبعد عن هذه التقوى التى أتى بها الإسلام ، والتى صورها هذا الشاعر الجاهلى فى شعره تصويرا سيئا ، بأن جعلها تُضعف المقاومة فى النفوس ، وتقتل الشر من القلوب ، وما قيمة العربى إذا ضعفت فيه قوة المقاومة ، وقلّ فيه عنصر الشر .

وهذه الأبيات الشعرية السابقة هى « لقُرَيط بن أُنَيف » وكان شاعرا إسلاميا ، لم يزل يحتفظ بالهوى الحقيقى لحميَّة الجاهلية .

وثم أبيات مشهورة لشاعر آخر اسمه « النجاشى » فى ذم بنى العجلان :

إذا الله جازى أهلَ لؤم ورقة ... فجازى بنى العَجلان رهْطَ ابن مُقْبلِ

قُبَيِّلةٌ لا يغدِرون بذِمة ... ولا يظلمون الناس حَبَّة خَردل

ولا يَرِدون الماء إلا عشيَّة ... إذا صدر الوُرّاد عن كل منهل

ومعنى هذه الأبيات أن بنى العجلان كانوا يستحقون مدح الشاعر وثناءه ، لو أنهم كانوا قوما غلاظا شدادا ، يميلون إلى الظلم ، بل يفخرون أنهم قادرون عليه . وتدلنا هذه الأبيات كذلك على أن الشعور بالشخصية أو الفردية لم يكن مما يصدر عن شاعر جاهلى الروح أو الخلق أو الطبيعة . وأمثال هذه الأبيات كثيرة فى الشعر الجاهلى والإسلامى ، وكلها تدل دلالة واضحة على هذا الاتجاه .

والواقع أنه بظهور الإسلام ، حاول الهجاء أن يتخذ شكلا تُنْسى فيه العصبيةُ الجاهلية بعض النسيان ، ويحل محلها النزعة الفردية ؛ وخاصة بعد خصومة قريش للنبى ، وانقسام الشعراء أنفسهم إلى معسكرين ، فشعراء يمدحون قريشا ويذمون الرسول صلوات الله وسلامه عليه ، وشعراء يمدحون الرسول

ويذمون قريشا ، وفى هذه الفترة أو بعدها بقليل جدا ظهر شعراء يخيل إلى من يدرسهم أنهم كانوا لا يُعنون إلا بأنفسهم ، ومن هؤلاء الشاعر المعروف باسم « الحطيئة » .

ومضت أيام النبوة ، وأيام الخلفاء الراشدين ، فعاد العرب إلى هذه العصبية الجاهلية ، التى كان الإسلام وحماته ، من لدن محمد صلى الله عليه وسلم ، إلى على رضى الله عنه ، يذودونها عن العرب ذودا ، ويصدون هؤلاء العرب عنها صدا ، فلما ماتوا ، وآل الأمر إلى غيرهم من بنى أمية ، عادت هذه العصبية الجاهلية ، ونبغ فى الهجاء القبلى شعراء ، من أهمهم : الفرزدق ، وجرير ، والأخطل ، والراعى ، والبَعيث ، وذو الرُّمة . كل شاعر من هؤلاء يدافع فى شعره عن قبيلته القبائلَ الأخرى ، لا يصده عن هـذا الدفاع سخطٌ يحسه على قبيلته التى يدافع عنها ، حتى لقد قال جرير :

تمنى رجال من تميم لى الرَّدَى وما ذاد عن أحسابهم ذائد مثلى

وكان هؤلاء الشعراء يسلـكون فى هجائهم وسخريتهم بالقبائل الأخرى طريقة تعتمد على الفخر أولا ؛ فكان شاعر كالفرزدق إذا هجا جريرا فخر بنفسه ، ليقف خصمَه على مكانته من قومه أولا ، وعلى مكانة قومه من القبائل العربية كلها بعد ذلك . ومن ثم كان الهجاء فى القصائد التى تركها لنا هؤلاء يختلط بالفخر اختلاطا تاما ، يصعب معه أن نفضل أحدهما على الآخر .

أما الطريقة الفنية التى كان يسلـكها كل شاعر منهم ، فهى طريقة القصة ، فكان كل شاعر يخترع لخصمه قصة فى هذا الشعر ، لا يحفل بأنها حق ، أو غير

حق ؛ لأنه كان لا يعنيه منها إلا أن يضحك الناس من هذا الخصم ، وهو مقتنع بينه و بين نفسه ، بأن الناس لن يصدقوا شيئا مما اتهمه به .

ومن الأمثلة على ذلك أن الفرزدق رمى جريرا بأنه راود أمه ، وقال عن كليب أنها خيّرت جريرا بين أن يأتى أمه ، و بين أن يُقتل ، وشنّع على صاحبه بهذه التهم كلها فى شعر هجاه به ، ليضحك الناس منه ، وهو واثق أن الناس أنفسهم لن يصدقوه فى شىء مما رماه به .

وكذلك كان الأمر أيضاً مع جرير بالقياس إلى الفرزدق ، فقد وصفه جرير بأنه قينٌ وابن قين ومن أسرة قيون (حدادين) ، ورمى أختا له اسمها « جِعثِن » بالفاحشة ، وبالغ فى هذه التهمة الأخيرة كل المبالغة . والحقيقة نفسها بعيدة عن كل ذلك .

فالصواب مثلا فى قصة « جعثن » ، أن الفرزدق تعرض لامرأة من قبيلة (بنى مِنقَر) اسمها « ظمياء » ، فأرسلت قبيلة ظمياء من تعرض لأخت الفرزدق ، وهي « جعثن » ، فصاحت هذه : يا آل مجاشع ، كما صاحت « ظمياء » يا آل منقر ، فحاول جرير أن يستغل هذه القصة فى شعره . فزعم أن المنقريين جرُّوا « جعثنا » على الأرض ، وفعلوا بها ما فعلوا فى ذلك الوقت .

أما قصة القين ، فيقول الرواة إن الأصل فى ذلك أن بعض عبيد بنى مجاشع كان حدادا ، فعُيرت أسرة مجاشع كلها بذلك .

والخلاصة فى هجاء الشعراء الذين ظهروا فى القرن الثانى للهجرة ، أنه كان هجاء قبليا ، لم ينس الشاعر فيه نفسه كل النسيان ، وإنما تحدث فيه عن نفسه ، لا لشىء إلا ليكبرَ فى نفوس الناس ، وتكبر معه القبيلة التى ينتسب إليها ،

وكان كل واحد من هؤلاء الشعراء ، يحرص الحرص كله ، على الفوز فى هذه المعركة الشعرية ، حرصه على الفوز فى معركة حربية ، بل هو أشد حرصا .

فالأمر عند كل واحد من هؤلاء كان جدا لا هزلا ، وكان حياة أو موتا ، وكان الشاعر إذا فرغ من الفخر بنفسه و بقومه ، وأراد أن يستريح فى بعض شعره ، جعل خصمه موضع هذه الراحة التى يطلبها ؛ فأخذ يندد به ، ويسخر منه ، ويشنّع عليه ، ليغيظه و يغيظ قومه ، ويثير حفيظتهم . وكان لهؤلاء الشعراء طرق كثيرة فى هذه الإغاظة ؛ منها ما كان يقصد إليه جرير أحيانا ، من الإبطاء فى الرد على هجاء الفرزدق ، وقصده من ذلك مضايقته ، والعبث به و بصبره . فكان يبدأ القصيدة التى يرد بها على الفرزدق عادة بالغزل ، ولكنه كان يطيل فى هذا الغزل ، فيغتاظ لذلك الفرزدق ، و يضيق صدره ، كأنما يقول بعد كل بيت يسمعه من أبيات هذا الغزل ، الذى لا يحب أن يسمعه : « دعنا من هذه المداعبة القاسية ، واشرع فى الهجوم علينا ! » .

ونحن نخاف أن نطيل على القارئ ، بأن نعرض عليه نماذج من الشعر الهجائى لهذه الفترة التى نتحدث عنها ، ولكنا نحيله على كتاب « النقائض » لأبى عبيدة ، ففيه الكثير من هذه القصائد ، التى تراشق بها أولئك الشعراء ، وتهاجوا بها ، وتنابزوا فيها بالألقاب .

***

وندع القرن الأول للهجرة ، إلى القرن الثانى ، فنلتقى أول ما نلتقى بكاتب عظيم ، هو « عبد الله بن المقفع » ، وهو رجل فارسى الأصل ، يحمل

فى أعماق قلبه بغضا عظيما للعرب ، وحبا عظيما للفرس ، ولا يترك فرصة تمر ، إلا ويظهر حبه وإعجابه بهؤلاء ، وبغضه وسخطه وازدراءه لأولئك .

ونعرف من سيرة هذا الرجل العظيم ، أنه مات مقتولا ، فى مؤامرة دبرها له الخليفة المنصور ، وكانت الأسباب الداعية إلى قتله كثيرة ، من أهمها رسالة كتبها إلى المنصور هى : « رسالة الصحابة » ، ثار فيها ابن المقفع على الخليفة ، ووضع يده على معايب الحكومة ، ورسم لها خطة الإصلاح الذى رآه ، فوَجَدَ عليه الخليفة المنصور ، ومنذ يومئذ وهو يتربص الفرص به ليقتله ، وما أيسر ما كانت هذه الفرص تُواتى هذا الخليفة . ذلك أن المنصور نفسه كان رجلا طاغية ، أو كان من أفراد كثيرين فى التاريخ الإسلامى معروفين بالشدة ، والقسوة ، والغلظة المتناهية . والأخبار الدالة على طغيانه كثيرة فى كتب الأدب العربى . ومن أجل ذلك لم يكن يسيرا على ابن المقفع ، مهما بلغت جرأته ، أن يمضى طويلا فى الغلظة على هذا الرجل ، بل كان لا بد له أولا من الترفق به ، والحذر منه .

وذلك ما فكر فيه ابن المقفع طويلا ، واهتدى من أجله أخيرا إلى طريقة يسخر بها من المنصور ، ويرشد فيها حكومته إلى الطريقة المثلى فى إدارة الأمور ، فشرع يترجم كتابه « كليلة ودمنة » ، وهو عبارة عن قصص على ألسنة البهائم ، جمعها من الأدب الفارسى ، وأضاف إليها من ذهنه بعض الشىء ، وصرّح فى صدر كتابه هذا بالأغراض التى من أجلها صنف هذا الكتاب ، أو قل صرّح بثلاثة فقط منها ، ولم يصرح بالغرض الرابع ، حيث قال عن هذه الأغراض :

أما (أولها) : فما قصد فيه إلى وضعه على ألسنة البهائم ، ليسارع إلى قراءته أهل الهزل .

(والثانى) : هو إظهار خيالات الحيوان ليكون أنسا لقلوب الملوك الخ .

(والثالث) : أن يكون على هذه الصورة ، فيكثر بذلك انتساخه ، ولا يبطل ، فيخلَق على مرور الزمن .

(والرابع) : وهو الأقصى ، وذلك مخصوص بالفيلسوف خاصة .

على أن هذا الغرض الذى لم يصرح به ابن المقفع ، لم يكن ليخفى على المنصور ، أو رجال المنصور . فقد كانوا يفهمونه و يقدرونه ، وكان هذا الغرض هو السخرية من تصرفات الملوك المتعسفين أمثال المنصور ، والتهكم بطغيانهم ، ثم الرغبة فى إرشادهم بهذه الطريقة القصصية ، التى لا مجال للشك فى أنها من خير الطرق الأدبية فى أداء هذا المعنى .

* * *

ومهما يكن من أمر هذا الكاتب الخطير ، فقد كانت سخريته بشيرا أو نذيرا بظهور حركة « العنصرية » أو « الشُّعوبية » فى المجتمع الإسلامى ، وكان لهذه العنصرية أو الشعوبية أثر واضح فى الأدب[1] . ثم مهما يكن من أمر هذا الكاتب الخطير ، فقد كانت سخريته أدنى إلى الجد والعبوس ، إذا قيست بسخرية رجل آخر كالجاحظ ، سنرى أن سخريته كانت مرحا كلها ، وكانت ضحكا كلها ، وأن حياته كانت ظلا لهذه السخرية اللعوب ، أو أن سخريته كانت ظلا لهذه الحياة ، التى لم تكد تعرف غير البهجة والسرور .

---

(١) انظر فصل الشعوبية فى ضحى الإسلام الجزء الأول ص ٤٩ وما بعدها .

والظاهر أن من أسباب هذه الفروق ، بين ابن المقفع والجاحظ ، أن الأول كان كاتبا « مثاليا » ، « أرستقراطيا » إنْ صح هذا التعبير ، فى حين أن الثانى كان أشد ميلا إلى « الواقعية » أو « الديموقراطية » فى عواطفه ، وفى الأدب الذى خلفه[1] .

* * *

على أن هذا القرن الثانى للهجرة ، شهد كذلك شاعرا فذًّا ، فى الشعر لا النثر ، وكان له فى الوقت نفسه ، مذهب فى السخرية والهجو ، وهذا الشاعر هو بشار بن برد . وكان ضريرا ، وكانت هـذه العاهة مصدر شر على نفسه ، ومصـدر شر على غيره . ومن هنا كان شـديد الضيق بنفسه ، و بنظام الحياة من حوله . وكان إذا ضاق بنفسه ، التمس لها مخرجا تتنفس منه ، فتهافت على اللذات ، وأسرع إلى ارتكاب الموبقات ، وتهالك عليها تهالك الرجل الذى ملأ الحزن قلبه ، فخيل إلى نفسه ، أنه لا مهرب لها من هذا الحزن إلا بشرب الخمر . ومن ثم أصبح بشار شرا على الخلق والدين ، وخطرا على أوضاع المسلمين ، وانتهى به الأمر أحيانا إلى السجن ، فكان السجن لا يزيده إلا ضراوة وقسوة ، وتهالكا على اللذة والشر . وتركت هذه الأخلاق الجريئة ، والنفس الشريرة البذيئة ، أثرها فى هجاء هذا الشاعر ، فكان هجاء يمتاز بالجرأة على الناس ، والنيل منهم ، والرغبة الملحة فى إيذائهم ، والاستهتار بهم ، والاستخفاف بأوضاعهم . وكل ذلك لغرض واحد كما نعتقد هو الدفاع

---

(١) انظر الفصل الرابع ص ١٠٢ من كتاب ابن المقفع للمؤلف .

عن نفسه ، والذود عنها ؛ ولكنه كان إذا أحسّ أن هجاءه يجلب له أذى مباشرا ، فكر وقدر ، وتراجع وتقهقر ، وآثر من وقته السلامة والعافية .

قيل إن « حماد عجرد » هجاه يوما بشعر منه قوله :

و يا أقبحَ من قرد إذا ما عمى القـــردُ !

فصغر بشار فى نفسه ، وأحس الذلة فى أعماق قلبه ؛ ومع ذلك لم يكلف نفسه الرد على هذا الهجاء ، خوفا من أن يعرّضه حماد لأشد من هذا الإيذاء .

وقيل أيضا أن بشارا هجا رجلا ، واستشعر بعد ذلك الخوف من هذا الرجل ، فغدا عليه فى اليوم التالى ، يقول له : « أمازحك وتأبى إلا الجدّ » !

ومعنى ذلك أن عنف بشار ، إنما جاء نتيجة لمضايقة الناس له ، و إلحاقهم الأذى بشخصه ، ولذلك ساء رأيه فى الناس ، وساء قصده لهم ، وانطوت نفسه الخبيثة على بغضهم ، والتنكر لهم .

على أن شعر بشار ، ليس وحده ، ما يصور لنا نفسه التى تمتلئ خبثا ومكرا ، وكراهية ولؤما ، وسخرية وحقدا ، وميلا شديدا إلى احتقار العُرف والقانون . بل إن من أحاديثه ما يدل على ذلك .

قيل إن بشارا دخل مرة على المهدى ، فأنشده شعرا ، وكان خال المهدى وهو رجل يقال له منصور الحميرى حاضرا ، وكان يبدو على خاله هذا شىء من الغفلة . فسأل بشارا : ما صناعتك ؟ فضحك بشار وأجابه بقوله : أثقب اللؤلؤ ! فقال المهدى لبشار : و يلك ! أتتندّر بخالى ؟

وهكذا سخر بشار منَ غفلة منصور الحميرى ، بطريقة لم يستطع المهدى معاقبته عليها ، و إن كان قد لاحظها ، وأظهر تألمه منها .

وكان لبشار غزل كثير ، ولكنه غزل يدعو إلى المجون ، ويذيع الفاحشة فى الجمهور . ويكفى أن تعرف أنه صاحب هذا البيت المشهور ، وهو قوله :

عُسْر النساء إلى مُياسرة والصعبُ يُمكِن بعد ما جَمَحا

والمهم أن هذا الغزل ، الذى يشيع فيه كل هذا المجون ، لم يكن يخلو من سخرية لاذعة ، إما بهذه اللذة نفسها ، وإما بالمرأة التى يدّعى بشار أنه يحبها . ويتضح لنا ذلك كله من رائيته التى مطلعها :

قد لامنى فى خليلتى عمر واللوم فى غير كُنْهه ضَجَرُ

وفيها يصور الشاعر لنا موقفا من مواقفه ، مع امرأة يزعم أنها فرت إليه من حاضنتها ، وأنه أخذ يقبلها ويعضها ، ويلمس ما دون مِرطها ، وأنها كانت مع هذا من اللين بحيث أخذت تشكو غلظته وقسوته ، وباتت لا تستطيع دفعه ، لأنه لا قبل لها برجل فى ضخامته وبدانته .

وفى هذه القصيدة الغريبة ، يقول بشار عن نفسه ، إنه ألصق بها لحيته الخشنة ، ذات الشعر الأسود ، الذى كأنه الإبر . فتركت هذه اللحية الكثة الشائكة آثارها واضحة ، فى وجه الفتاة البضة الناعمة ؛ فضاقت به ذرعا ، وانطلقت تبكى ، وهى تقول :

كيف بأمى إذا رأت شفتى أم كيف إن شاع عنك ذا الخبر ؟
قد كنت أخشى الذى ابتليت به منك فماذا أقول يا عِبَرُ ! !
قلت لها عند ذاك يا سكَنى لا بأس أنى مجرب خبر
قولى لها « بقّة » لها ظفر إن كان فى البقّ ما له ظفر ! !

قبحك الله من رجل داعر ساخر ، أيها الشاعر الخبيث ، أين البقّة التى لها ظفر تجرح به الناس ؟ لكنها سخريتك الماجنة ، ودعارتك البالغة ، ونفسك المتهالكة على اللذة ، ورغبتك فى أن تشغل الناس كلهم بالحديث عنك ، وعن فسوقك ومجانتك .

وذلك هو « مركب النقص » عند بشار ، يعرف الناس عنه أنه أعمى ، ومع هذا يزعم لهم أنه فتنة النساء فى بغداد ، ويعلم الناس عنه أنه قبيح المنظر ، ومع هذا يزعم لهم أنه ظريف ، خفيف الروح ، وأنه حديث الرجال فى أنحاء العراق .

* * *

وندع بشارا وابن المقفع ، إلى كاتب آخر جاء بعدهما فى القرن الثالث الهجرى ، وقدر له أن يكون أبعد صوتا ، وأطول عمرا ، وأفسح قولا ، وأوسع صدرا ، وهو « الجاحظ » .

والظاهر أن الجاحظ كان كسابقه « ابن المقفع » من الكتاب الأحرار ، لا كتاب الديوان ، والظاهر أنه كانت بينه وبين هؤلاء إحَن وبغضاء ، ومن الجائز أن تكون هذه الظروف قد أتاحت للجاحظ فرصة السخرية بهم ، والسخط عليهم .

وكان الجاحظ نفسه واسع الثقافة ، إلى حد أنه يعتبر فى نظر المؤرخين لهذه الفترة الذهبية التى عاش فيها ، وهي القرن الثالث الهجرى ، موسوعة أدبية وعلمية مُفَنَّنة ، وهذا الكاتب وحده هو صاحبها .

وكان الجاحظ يستقى ثقافته هذه من مصادر عدة ، لعل من أهمها هنا

« الحياة الواقعة » نفسها ؛ ومن ثم كان الجاحظ « واقعيا » فى أدبه كما قلنا ، بالقياس إلى ابن المقفع ، الذى كان « مثاليا » فى كل ما ترك لنا من آثار .

والمثاليون دائما جادون فى نقدهم ، عابسون فى سخريتهم ، يؤثرون العنف والقسوة ، ما لم يردّهم عن ذلك خوف من اصطادمهم بالسلطان . أما الواقعيون من أمثال الجاحظ ، فإنهم على خلاف ذلك فى الغالب ، يميلون إلى المرح والمداعبة ، ويحسنون المراوغة فى معرض اللوم والمؤاخذة ، ويقدرون على أن ينالوا من خصومهم ، بطريق الهزل والعبث والممازحة ؛ تتسع الحيل أمامهم للهرب من عدوهم ، مَتى رأوا أنه ضيق عليهم الخناق ، ولا تُعوِزهم الفكرة التى يبررون بها أعمالهم ، متى تعرضوا لمحاسبة الحكام ؛ وهم بعد هذا كله ، أدنى إلى نفوس العامة ، ولا تسأم كلامَهم الخاصة ، ولا يتعرضون لهذا الشر الذى يشقى به الجادون العابسون ، من أدباء « المثل العليا » .

فلقد كان ابن المقفع أدنى إلى الصراحة والجد ، فى سخريته من العرب ، ونُظُم العرب ، ودين العرب ؛ بل كثيرا ما صرح فى أحاديثه بأن العرب ليسوا أهلا لعز أو سلطان ، وأنهم إن كانوا قد ظفروا بشىء منهما ، فإن ذلك مما يثير فى نفسه العَجَب والدهش . أما الجاحظ فكان يتكلم فى الشىء وضده دائما ، بحيث يستطيع أن يمدح العرب ويذمهم ، أو يمدح الفرس ويذمهم ، أو يمدح الترك ويذمهم ، وهو فى كل حالة من هذه الحالات لا يشعرك بأنه جاد ، ولكنه يضحك معك ، ويبعثك على الضحك الذى لا يخلو من الفائدة ، وهذه الفائدة هى النقد والايذاء ، إن كان يريد نقدا أو إيذاء ، أو هى الحمد والثناء ، إن كان يعنيه أن يحملك على شىء من ذلك .

ولعلّ من أجمل الكتب التى كتبها الجاحظ الساخر كتابين، هما : كتاب « التربيع والتدوير »، وكتاب « البخلاء » .

أما موضوع الكتاب الأول فهو السخرية بشخص اسمه « أحمد بن عبد الوهاب »، ونحن إذا نظرنا فى سخرية الجاحظ، كما تبدو لنا من هذا الكتاب، نرى أنها مؤلفة من عناصر شتى .

أولها : عنصر الضحك والمُزاح، وهما الغالبان على طبع الجاحظ كما رأينا، وبسببهما يمكن اعتباره من كتاب التنديد أو التندر Humour، وإذا ذهبنا نلتمس له نظيرا بين أدباء الإنجليزية، فنظيره فى هذا النوع من السخرية هو « ديكنز » Dickens . ولا غرابة فى هذا، فهما « واقعيان » فى أدبهما، يَصدُران فى هذا الأدب عن براعة ومهارة فى التصوير، كما يَصدُران فيه عن قدرة لانظير لها فى فهم الجماهير، ثم عن نفس مرحة، لايؤذيها انحراف الفرد أو الجماعة، إيذاء يبعث على الحزن، الداعى إلى الوعظ والهداية، ولكن يبعث على الإشفاق، الداعى إلى الضحك والزراية .

والثانى من عناصر السخرية الجاحظية، بعد عنصر الضحك والمُزاح، عنصر « المسخ »، أو العبث بالصورة، وهو ما يسمى عند الأوربيين باسم « الكاريكاتور » . والجاحظ فى هذا العنصر الأخير يعتبر تلميذا فى الهجاء لابن الرومى، وهو الشاعر الإسلامى الذى برع براعة ممتازة فى هذه الطريقة .

وتقوم طريقة الكاريكاتور على المبالغة فى تصوير العيوب، فالرجل ذو الأنف الكبير يبدو فى لوح الرسام وكأن أنفه وحده يزن الوجه كله، والرجل القصير يبدو فى هذا اللوح كأنه أقصر من الواقع بكثير، والرجل

الغليظ ، يظهر غليظا بدرجة لا وجود لها فى الحياة الواقعة ، وهكذا .

تعرض ابن الرومى لهجاء رجل بلحيته ، فقال :

لو غاص فى الماء بها غوصة صاد بها حيتانه أجمعا !

وهجا رجلا بطول أنفه فقال :

حملتَ أنفا يراه الناس كلُّهم من رأس ميلٍ عِيانا لا بمِقياس
لو شئتَ كسبا به صادفتَ مكتسبا أوانتصارا مضى كالسيف والفاسِ !

وقال يصف بخيلا اسمه عيسى :

يقتِّر عيسى على نفسه وليس بباق ولا خالدِ
فلو يستطيع لتقتيره تنفس من مَنخِرٍ واحدِ !

وعلى هذه الطريقة ، سخر الجاحظ فى رسالة « التربيع والتدوير » من كاتب بغدادى اسمه « أحمد بن عبد الوهاب » ، فزعم له عيوبا ، بالغ فى وصفها كما شاء ، وسخر من كل واحد منها كما شاء ، فقد كان هذا الرجل قصيرا ، ويزعم أنه طويل ، كما كان هذا الرجل جاهلا ويزعم أنه عالم ؛ فأخذ الجاحظ يعبث به كثيرا من هاتين الناحيتين .

فما دام أحمد بن عبد الوهاب يزعم أنه من العلم بحيث يحيط بكل شىء ، فهو قادر ، فى نظر الجاحظ ، على أن يجيب السائل عن كل شىء ، فليسأله الجاحظ على سبيل « التبكيت » : كيف رأى طوفان نوح ؟ وأين عاد وثمود ؟ وأين طَسْم وجَدِيس ؟ وأين جُرهم وجاسم ؟ وأين أولاد الناس من السعالى ؟.

وهكذا يلقى عليه طائفة كبيرة من مثل هذه الأسئلة ، التى قد تبلغ المائة ،

وهو يعلم أن أحدا لا يستطيع الجواب ، ولكنه مع هذا يقول لأحمد بن عبد الوهاب : « ولولا أنك المسئول فى كل زمان ، والغاية فى كل دهر ، لما تفردتك بهذا الكتاب ، وما أطمعت نفسى فى الجواب » .

ثم من العناصر التى تؤلف سخرية الجاحظ عنصر « التناقض » ؛ فهو مفتون بهذا الضرب من البيان ، والسخرية نفسها عند الكثيرين من أدباء الهجاء ، تقوم على مثل هذه الأنواع . ولذا تراه يعرض علينا صورا كثيرة التناقض من شخص أحمد بن عبد الوهاب ، فهو مرة قصير ، وفى أخرى طويل ، وفى ثالثة يجمع بين القصر والطول ؛ ثم يقول على لسان هذا الرجل نفسه :

« وما علىّ أن يرانى الناس عريضا ، وأكون فى حكمهم غليظا ، وأنا عند الله طويل جميل ، وفى الحقيقة مقدود رشيق . وقد علموا — حفظك الله — أن لك مع طول البادّ[1] راكبا ، طولَ الظهر جالسا ، ولكنْ بينهم فيك إذا قمت اختلاف ، وعليك لهم إذا اضطجعتَ مسائل ، ومن غريب ما أُعطيت ، وبديع ما أُوتيت ، أنّا لم نر مقدودا واسع الجُفْرة[2] غيرَك ، ولا رشيقا مستفيض الخاصرة سواك ، فأنت المديد ، وأنت البسيط ، وأنت الطويل ، وأنت المتقارب ؛ فيا شعرا جمع الأعاريض ، ويا شخصا جمع الاستدارة والطول ؛ بل ما يُهمك من أقاويلهم ، ويتعاظمك من اختلافهم ، والراسخون فى العلم ، والناطقون بالفهم ، يعلمون أن استفاضة عرضك ، قد أدخلت الضَّيم على ارتفاع سَمكك ، وأن ماذهب منك عَرضا ، قد استغرق ما ذهب منك طولا ؛ ولئن اختلفوا فى طولك ، لقد

---

(١) البادّ عظم الفخذ . . . والجاحظ يقول إن أحمد بن عبد الوهاب طويل الفخذ حين يركب ، طويل الظهر حين يجلس ، فهو طويل فى هاتين الحالتين ، ولكن كان إذا قام أو اضطجع ظهر للناس قصر ساقه فاختلفوا فيه .

(٢) الجفرة بالضم : جوف الصدر ، أو ما يجمع الصدر والجنبين .

اتفقوا فى عرضك ، وإذ قد سلموا لك بالرغم شطرا ، ومنعوك بالظلم شطرا ، فقد خصّلت ما سلموا ، وأنت على دغواك فيما لم يسلموا ... الخ » .

وهكذا يعبث الجاحظ بأحمد بن عبد الوهاب ، كما يعبث الصبى بالدُّمية ، أو كما تعبث الهرة بالجرَذ : يخاصمه حينا ، ويسالمه حينا ، وهو فى المسالمة ، أشد سخرية منه فى المخاصمة .

ثم من العناصر التى تؤلف سخرية الجاحظ ، عنصر « العلم أو الثقافة » . والجاحظ عظيم الحظ حقا من هذا العلم وهذه الثقافة ، وفى سخريته ميل شديد إلى الاستفادة من علوم شتى : كعلم الجدل ، وعلم المنطق ، وكالثقافة اليونانية أيضا .

ومن ذلك على سبيل المثال ، قوله على لسان أحمد بن عبد الوهاب ، معتذرا عن الذين يذمونه ، ويتهمونه بأنه قصير وهو ليس بقصير ، وأنه غليظ وهو غير غليظ :

« ولعمرى إن العيون لتخطئ ، وإن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل ، إذ كان زِماما على الأعضاء ، وعِيارا على الحواس الخ » . وفى هذه العبارة الأخيرة إشارة إلى نظرية من نظريات السُّفسْطائيين ، هى نظرية « كذب الحواس » ، وقد استغلها الجاحظ فى هذه الرسالة ، ووفق توفيقا عظيما فى الموضع الذى استخدمها فيه من مواضعها .

أما كتاب البخلاء ، فهو ضَحكة عالية متصلة من ضَحكات الجاحظ ، من هذا الصنف من الناس ، وسخرية مريرة منهم ، تقوم على الحقائق أكثر من

الخيال ، وعلى الواقع أكثر من الأوهام ، ولكن على أساس من المبالغة والتزيد، اللذين لا غنى عنهما فى أدب السخرية .

وكتاب البخلاء فى أيدى القراء ، يستطيعون أن يضحكوا فيه مع الجاحظ ، ضحكا متصلا من هذا الصنف من الناس ، كما يستطيعون أن يعجبوا فيه أيضا من دقة الجاحظ فى التصوير ، ومن قدرته التى يوشك ألا يكون لها نظير ، على ملاحظة أتفه الأمور ، دعْ عنك أعظمَها وأخلقَها بعناية العالم أو الأديب .

* * *

هذا كله فى النصف الأول من العصر العباسى . أما فى النصف الثانى ، فإننا نلتقى فيه بشاعر من أكبر شعراء العربية فى مجال السخرية الأدبية ، هذا الشاعر هو أبو العلاء المعرى . كان هذا الرجل ساخرا فى شعره ، كما كان ساخرا فى نثره ، ولكنا مكتفون بالإشارة إلى سخريته فى النثر ، ومنها كتابه « رسالة الغُفران » ، وفيها يتصور أن صديقا له هو « ابن القارح » ، قد التقى بالشعراء والعلماء فى اليوم الآخر ، فمنهم من وجده فى جهنم ، ومنهم من غفر الله له بسبب بيت من الشعر ، فكان مصيره الجنة . وهناك فى اليوم الآخر شهد صديق الشاعر معارك شتى بين الشعراء ، كالمعركة التى دارت بين الأعشى ونابغة بنى جَعدة ، وفيها يتعدى كل من الشاعرين على صاحبه بألفاظ جارحة ، فيقول أحدهما للذى نجا منهما ودخل الجنة : « ولو جاز الغلط على رب العزة لقلت إنه غلط بك » . وفى هذه العبارة الأخيرة من السخرية بالدين نفسه ما لا يخفى !

ثم يطوف الشاعر بصديقه فى رياض الجنة ، حتى يشهد فيها منظرا يبعث على الضحك من أهل الجنة ، إذ يمرّ به على رَفٍّ[1] من الإوز ، ومن شأن هذا

(١) الرف الجماعة من الناس أو الغنم ، هكذا فى كتب اللغة . نقول: وقد يقال للجماعة من الطير.

الطير أن يتكلم ، فيقول ما شأنك ؟ فيقلن : ألهمنا أن نسقط فى هذه الروضة ، فنغنى لمن فيها . فيقول : على بركة الله القدير ، فينتفضن ، فيصرن جوارى كواعب ، يرفلن فى وشى الجنة ، و بأيديهن المزاهر ، وأنواع ما يلتمس من الملاهى ، فيقول الشيخ « ابن القارح » للنابغة الجعدى :

يا أبا ليلى ، إن الله جلت قدرته ، منّ علينا بهؤلاء الحُور العِين ، اللواتى حوّلهن عن خَلق الإوز ، فاختر لنفسك واحدة منهن ، فلتذهب معك إلى منزلك ، تلاحنك أرق الألحان ، وتسمعك ضروب الأوزان .

فيقول لبيد بن ربيعة :

« إن أخذ أبو ليلى قينة ، وأخذ غيره مثلها ، أليس ينتشر خبرها فى الجنة ، فلا يؤمن أن يسمى فاعلو ذلك أزواج الإوز » ؟

وقريب من هذه القصة قول المعرى فى قصة أخرى من رسالته ما نصه :

« فيقول الملك خذ ثمرة من هذا الثمر فاكسرها ؛ فإن هذا الثمر يعرف بشجر الحور ، فيأخذ سفرجلة ، أو رمانة ، أو تفاحة ، أو ما شاء الله من الثمار ، فيكسرها ، فتخرج منها جاريةٌ حَوراء عَيناء ، تَبْرُق لحسنها حور الجنان ، فتقول : من أنت يا عبد الله ؟ . فيقول : أنا فلان بن فلان . فتقول : إنى أُمَنَّى بلقائك قبل أن يخلق الله الدنيا بأربعة آلاف سنة » .

وهكذا يُجرى أبو العلاء على ألسنة الشعراء ألفاظا ، يَفهم منها الناس معنى السخرية بأهل الجنة . ويكفى أن منهم من يكون من أزواج الإوز ، وأن منهم من يصح أن يكون من أزواج السفرجل ، أو التفاح ، أو الرمان ، أو ماشاء الله من الثمار !

وهكذا يضحك « ابن القارح » من أهل الجنة ، ثم يضحك أخيرا من نفسه ، فلقد جعله الشاعر فى بعض رسالة الغفران يجوز الصراط ، فلا يستمسك ، حتى يطلبُ إلى جارية من جوارى الزهراء أن تستعمل معه قول الذى يقول :

سِتِّ إن أعياكِ أمرى   فاحمليني زَقَفُونَهْ !

والمعرى فى كل هذا يسخر فى رسالته من يوم القيامة ، ومن الجنة ، ومن النار ، ومن الشفاعة ، ويجعل من على بن أبى طالب مصلحا بين الملائكة ، ثم يجعل منه حارسا على الحوض ، لا يَسقى منه أحدا ليس من شيعته ؛ ويُجرى على لسان أوس بن حجر قوله : « ولقد دخل الجنة من هو شر منى ، ولكن المغفرة أرزاق ، كأنها النشب فى الدار العاجلة ! » ؛ ثم يعبث المعرى فى رسالته بالكفار والزنادقة ، فى شدةٍ مصطنعة ، ويعبث فى الوقت نفسه بالمؤمنين والصالحين ، فى لين كلين الحيّة ، ويعرض لإبليس ، فيعذبه فى النار عذابا أليما ، بأيدى زَبانية جهنم ، ولكن لا يصرفه هذا العذاب نفسه عن استخدام الزبانية أنفسهم ، فى الكيد للناس فى الحياة الأخرى ، كما كان يكيد لهم فى الحياة الدنيا ، ويعرض المعرى فى رسالته للُّغويين والنُّحاة ، ويأخذ الشعراء أخذا شديدا بأخطائهم فى النحو واللغة ، ويتهكم تهكما ظاهرا بسادات قريش وكهانها ، ويضحك من المعتزلة والحلولية ، ومن القائلين بالتناسخ ، وأخيرا يسخر من الأديان السماوية كلها، سخرية لا نعرف أشد منها ، إذ ينقل قول يهودى فى هجاء عمر بن الخطاب :

يصول أبو حفص علينا بدِرَّة   رويدك إن المرء يطفو ويرسبُ

فلو كان موسى صادقا ما ظهرتمُ   علينا ولكن دولةٌ ثم تذهب

ونحن سبقناكم إلى المَيْن فاعرفوا   لنا رتبة البادى الذى هو أكذب

مشيتم على آثارنا في طريقنا ... وبُغْيتكم في أن تسودوا وترهبوا

***

وعلى هذا النحو ، يمضى شاعر المعرة فى كتابه ، فيضحك هذه الضحكة الهادئة ، التى تستغرق كل الكتاب ، والمعرى فى كل هذا الضحك الهادئ المتصل ، يَصدُر عن خلق وادع ، وطبيعة مهذبة ، ومزاج رقيق ، وحسّ دقيق ، واحتياط شديد ، وحياء من الناس ، وحذر من أن يلفتهم لفتا صريحا إلى عيوبهم ، فيلتفتوا التفاتا جارحا إلى عيبه .

حُكى عن هذا الشاعر أنه أكل فى يوم دِبْسا ، ثم خرج لدرسه ، وقد سقط شيء من هذا الدبس على صدره ، فبادره بعض تلاميذه بقوله : أكل الشيخ دِبسا ، وهمّ بأن ينظف له ثوبه ، فاستحى الشيخ وقال : نعم ، قاتل الله الشَّرَه ! ثم حرّم على نفسه أكل الدِّبس فيما حرم ، منذ ذلك اليوم . فأين هذه النفس الوادعة الحيية ، من نفس بشار الخبيثة الجريئة ، التى طُبعت على الشر واللؤم والإيذاء ! وأين هذا الطبع الذى مَرَن على الزهد والحرمان ، من طبع بشار المتهافت على اللذة والمتعة ، تهافت الفراش على النار !

***

تلك صورة من صور السخرية فى المشرق ، خليق بنا أن نذكر صورة مقابلة لها من السخرية فى المغرب ؛ وذلك كله قبل أن نعود إلى الحديث عن السخرية فى مصر خاصة .

ونحن نعرف أن الأدب العربى فى المغرب ، كان مطابقا فى كثير من أجزائه للأدب العربى فى المشرق ، وأن أدباء الأندلس كانوا محاكين لأدباء الشام والعراق ؛

وأن الأغراض الأدبية التى نبغ فيها هؤلاء ، توشك أن تكون هى بعينها الأغراض الأدبية التى نبغ فيها أولئك .

ولا شك أن من هذه الأغراض الأدبية التى وقع فيها التشابه بينهما ، غرض الهجاء أو السخرية . وربما كانت (الرسالة الهزلية) لابن زيدون الأندلسى فى ذلك من خير الأمثلة . فلا بأس إذن من أن نُلِمَّ بها ، ونوازن بينها وبين بعض الرسائل التى مرت بنا .

قيل فى سبب إنشاء هذه الرسالة : « إنه كانت بقُرطبة امرأة ظريفة من بنات خلفاء الأمويين ، تسمى ولّادة بنت المستكفى بالله ، ابتُذل حجابها بعد نكبة أبيها وقتله ، وغلبة ملوك الطوائف على أمره ؛ ثم صارت هذه المرأة العظيمة تجلس للشعراء والكتاب ، وتعاشرهم وتحاضرهم ، ويتعشقها الكبراء منهم ، وكانت ذات خَلق جميل ، وأدب غض ، ونوادر عجيبة ، ونظم جيد ؛ وكان ابن زيدون كثير الشغف بها ، والميل إليها ، وأكثر غزله فيها . ثم إن الوزير أبا عامر بن عبدوس أيضا هام بها ، وكَلِف بعشرتها ، وكانت ولّادة كثيرة العبث به ، ولها معه نوادر ظريفة .

وكان الباعث المباشر لابن زيدون على إنشاء هذه الرسالة : أن ابن عبدوس لما سمع بها ، أرسل إليها امرأة من جهته تستميلها إليه ، وتذكرها محاسنه ومناقبه ، وترغبها فى التفرد بمواصلته ؛ فبلغ ابنَ زيدون ذلك ، فكتب هذه الرسالة وضمَّنها سبَّ أبى عامر والتهكم به ، والهجاء له ، وجعلها جوابا له على لسان ولّادة ، وأرسلها عقيب رجوع المرأة ؛ فبلغت منه كل مبلغ ، واشتهر ذكرها

فى الآفاق ، وأمسك ابن عبدوس عن التعرض لولادة ، إلى أن انتقل ابن زيدون إلى إشبيلية ، وتوفى بها »[١] .

أما الرسالة الهزلية نفسها فتبدأ بقوله :

أما بعد أيها المصاب بعقله ، المورَّطُ بجهله ، البيّن سقَطُه ، الفاحش غلطُه ، العاثر فى ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على الشراب ، المتهافت تهافت الفَراش فى الشهاب ؛ فإن العُجب أكذب ، ومعرفة المرء نفسه أصوب ؛ و إنك راسلتنى مستهديا من صلتى ما صفرت منه أيدى أمثالك ، متصديا من خُلتى لما قُرعت دونه أنوف أشكالك ، مرسلا خليلتك مرتادة ، مستعملا عشيقتك قوّادة ، كاذبا نفسك أنك ستنزل عنها إلىّ ، وتخلُف بعدها علىّ :

ولستَ بأول ذى همــة دعتــه لما ليس بالنـائل

ولاشكّ أنها قَلَتْك إذْ لم تضِنّ بك ، وملَّتْك إذ لم تعز عليك ؛ فإنها أعذرت فى السفارة لك ، وما قصَّرت فى النيابة عنك ، زاعمة أن المروءة لفظ أنت معناه ، والإنسانية اسم أنت جسمه وهَيولاه[٢] ، قاطعة أنك انفردت بالجمال ، واستأثرت بالكمال ، حتى خيَّلتَ أن يوسف عليه السلام حاسَنَك فغضضت منه ، وأن امرأة العزيز رأتك فسَلَتْ عنه ، وأن قارون أصاب بعض ما كنزت ، والنَّطِف[٣] عثر على فضل ما ركزت ، وكسرى حمل غاشيتك ، وقيصر رعى ماشيتك ؛

---

(١) من كتاب سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة المصرى بتصرف .

(٢) الهيولى : المادة المدبرة للصورة ، وهي أصل الشيء .

(٣) رجل من العرب أصاب مالا كثيرا ، فضرب به المثل .

والإسكندر قتل دارا فى طاعتك ، وأردشير جاهد ملوك الطوائف بخروجهم عن جماعتك ، والضحّاك استدعى مسالمتك ، وجَذيمة الأبرش تمنى منادمتك ، وشِيرين [١] قد نافستْ بوارن فيك ، وبِلقيس غايرت الزباء عليك » .

وهكذا مضى ابن زيدون على طريقته هذه فى «تبكيت» ابن عبدوس ، لايعدوها إلى طريقة أخرى ، قائلا له على لسان المرأة التى بعث بها إلى ولادة: إنه أجمل من يوسف ، وأغنى من قارون ، وأعظم من كسرى ، وأجل من قيصر ، وأكبر من الإسكندر ، وإن الضحاك ساله ، وجذيمة نادمه ، وبنات الملوك فى فارس تنافسن فى حبه ، وبِلقيس غايرت الزباء من أجله ، والسموءل إنما قلده فى الوفاء بالعهد ، والأحنف بن قيس إنما تشبه به فى الحلم ، وإن حاتما لم يفعل أكثر من أنه لقى الأضياف على طريقته ، ومُلاعب الأسنة إنما لعب بيده ، وقيس بن زهير إنما استعان بدهائه ، وإياس بن معاوية إنما استضاء بمصباح ذكائه ، إلى آخر ما أتى به ابن زيدون ، من هذه الأقوال الدالة على معرفته بالتاريخ العربى القديم ، والأمثال العربية القديمة ، حتى وصل إلى قوله :

« وهبها لم تلاحظك بعين كليلة عن عيوبك ، ملؤها حبيبُها ، حَسَنٌ فيها من تَودّ ، ووضعتْ الهِناءَ مواضع [٢] النَّقبِ بما نسبته إليك ، ولم تكن كاذبة فيما أثنت به عليك ، فالمُعيدِىُّ تسمع به خير من أن تراه الخ » .

وهنا نقطة التحول فى الرسالة الهزلية لابن زيدون ، وذلك من السخرية

---

(١) شيرين زوجة أبروَزير ولد كسرى ، وبوران ابنته ، ولهما فى الأساطير الفارسية خبر معروف . اقرأ سرح العيون ص ٥١ — ٥٢ .

(٢) هذا مثل لمن يضع الأمور فى محلها .

بطريق التبكيت، إلى السخرية بطريق الذم الواضح ، والهجاء الصريح؛ ومنه قوله :

كلامك تمتمة ، وحديثك غمغمة ، و بيانك فهفهة ، وضحكك قهقهة ، ومشيك هرولة ، وغناك مسألة ، ودينك زندقة ، وعلمك مَخرقة ، حتى إن باقلا موصوف بالبلاغة إذا قُرن بك ، وهَبَنَّقة [1] موصوف بالعقل إذا أضيف إليك » .

وعلى هذا النمط تمضى الرسالة الهزلية فى النَّيْل من ابن عبدوس حتى نهايتها .

والتأمل فى هذه الرسالة يُرِى أن ابن زيدون وقد اتكأ فى سخريته على طريقة واحدة من طرق السخرية ، هى طريقة التبكيت ، وهي إحدى الطرق الكثيرة التى سلكها الجاحظ فى رسالة التربيع والتدوير كما رأينا . واختار ابن زيدون لذلك أسلوبا واحدا لم يخالفه إلى غيره ، هو إيراد الإشارات التاريخية والأدبية الكثيرة ، يتبع بعضها بعضا على وتيرة واحدة ، ويلحق بعضها ببعض ، كما تلحق حبات العقد بعضها ببعض فى خيط واحد .

وكأنى بقارىء هذه الرسالة يهش لهذه القراءة نفسها أول الأمر ، ثم لا يلبث أن يضيق بها ، ويسأم كثيرا من عبارتها فى آخره ، ثم يخيل إليه أنه نسى أن موضوعها السخرية بشخص بعينه بعد ذلك .

ونحن إذ نوازن بينها وبين رسالة التربيع والتدوير يتضح لنا فروق شتى بينهما ، من أهمها هنا : أن شخصية ابن زيدون تذوب ذوبانا سريعا ومعيبا فى رسالته الهزلية ، فى حين أن شخصية الجاحظ تظهر لنا من خلال رسالته ، من أولها إلى آخرها ، لايكاد الجاحظ نفسه يغيب فيها عن أعيننا لحظة واحدة .

---

(١) هبنقة: أحد بنى قيس بن ثعلبة ، يكنى أبا الودعات ، لأنه نظم لنفسه وَدَعا فى سلك ، وجعله فى عنقه، علامة لنفسه، لئلا يضيع . قيل إن أخاه راقبه إلى أن نام، فأخذ العقد من عنقه ، وجعله فى عنق نفسه ، فلما انتبه هبنقة ، ورأى أخاه ، قال له : أنت أنا ، فأنا ترى من أنا ؟ ولهذا يضرب به المثل فى الحمق .

وفرق آخر بين الجاحظ وابن زيدون ، أن الأول منوّع الطرق كما رأينا ، وأن الثانى موحدها كما لاحظنا ، ومصدر التنويع عند أحدهما والتشابه والتوحيد عند الآخر ، أن الجاحظ كان رجلا واسع الأفق ، عظيم الحظ من العلم والثقافة ، ذا قدم راسخة فى كثير من العلوم والآداب ، دقيق الملاحظة للناس والأشياء ، منطلق الذهن ، بسبب اشتغاله بعلم الكلام ، وباختصار ، كان الجاحظ رجلا موهوبا من جميع جوانبه .

أما ابن زيدون فرجل واسع العلم بالتاريخ العربى ، والثقافة العربية فحسب . نشأ فى الأندلس ، يوم كانت تطارد الفلسفة بعنف وقوة ، وكانت تنظر إلى الثقافات الأجنبية على أنها نبات لا تصلح له تربة عربية إسلامية ، فكان لكل ذلك أثر واضح فى الأدب الذى أنتجه ابن زيدون وغيره من أدباء الأندلس فى تلك الفترة .

على أن هذه الموازنة بين الجاحظ وابن زيدون ، تنهض دليلا واضحا على صدق ما ذهبنا إليه منذ حين ، من أن الفرق عظيم جدا بين سخرية رجل له مشاركة قوية فى ضروب كثيرة من العلم والثقافة ، وبين سخرية رجل قصر نفسه وجهده على ضرب واحد من العلم ومن الثقافة ؛ وقد كان ابن زيدون يتشبه فى شعره بالبحترى ، وربما كان من غرض ابن زيدون أن يتشبه فى نثره بالجاحظ ، فنجح فى غرضه الأول ، ولكنه لم يوفق أكبر التوفيق فى غرضه الثانى . ومصدر ذلك فيما نرى هو التشابه بينه وبين أولهما ، والتخالف بينه وبين الأخير .

أما البحترى فكان شاعرا لا يأخذ نفسه بثقافة واسعة ، ولا يكلفها حدود منطق الفلاسفة ؛ وأما الجاحظ فكان يمثل العقل الإسلامى فى أرقى درجاته ، والأدب الإسلامى فى أعلى مراتبه ، والثقافة الإسلامية فى أقصى منازلها .

السخرية فى أدب ابن مماتى

— ٣ —

فى الوقت الذى ظهر فيه المعرى بالشام ، كانت الخلافة المصرية قد مضى على ظهورها وقت كاف لأن يجعل منها خلافة فتية ، تُزرى بتلك الخلافة العباسية فى بغداد . وكان الأدب والعلم قد استقر بهما المُقام فى مصر، بعد أن كانا لايعرفان لهما مُقاما غير العراق . فأصبحت مصر قِبلة أنظار العلماء والأدباء والشعراء ، وأصبح الأدب المصرى بسبب هذا خليقا بعناية هؤلاء وهؤلاء ، ونمت الشخصية المصرية نفسها شيئا فشيئا ، حتى طغت على غيرها من شخصيات البلاد الإسلامية الأخرى ، ثم ظلت مصر تحتفظ بعظم مكانتها إلى مجىء الأتراك من آل عثمان .

وإذ قد عرضنا للسخرية من حيث هى أولا ، ثم استعرضنا بعض ألوانها فى الأدب العربى ثانيا ، فلم يبق إلا أن ننظر فى السخرية المصرية آخر الأمر . ونحن مضطرون هنا أن نكتفى بجزء يسير منها، هوهذا الجزء الذى رأيناه فى قصص ابن مماتى المصرى . والذى لا نشك فيه هو أن مصر عرفت الأدب الساخر قبل العصر الأيوبى ، وأن كتبا كثيرة ، وقصائد من الشعر عظيمة ، أُلفت فى السخرية

قبل هذا العصر ، ولـكن الزمن لم يسمح بعدُ بالعثور على هذه الـكتب ؛ فليس لنا بد إذن من أن نقصر بحثنا فى هذه المرة على كتاب « الفاشوش » . ولنا أو لغيرنا ممن يسعدهم الحظ ، فيعثرون على شىء من الآثار الأدبية التى نشير إليها ، أن يكوّنوا لأنفسهم رأيا فى أدب السخرية فى مصر عامة ، وذلك بعد أن نعرض عليهم رأيا موجزا فى سخرية ابن مماتى خاصة ، ونوازن بينها و بين سخرية الوَهْرانىّ .

وقد رأينا فى الجزء الأول ، من هذا الفصل ، الذى كتبناه عن السخرية ، أن هناك فرقا بين أدب ساخر يَصدُر عن العامة ، وأدب ساخر يَصدُر عن الخاصة .

ورأينا من خصائص الأول ، ميله إلى القذف والسِّباب ، وعدم الاحتياط فى اختيار الألفاظ والعبارات التى ترضى الأذواق ، أو تنبو عنها هذه الأذواق ، ثم عجزه عن استخدام العلم والثقافة ، وخروجه أحيانا عن حدود الأدب والأخلاق . وذلك أن الشعب نفسه — كما قلنا — قل أن يحسن شيئا من هذه الأشياء .

أما السخرية الصادرة عن الخاصة ، فرأيناها أقل صَخَبا ، وأطول نَفَسا ، وأرق لغة ، وأغنى مادة ، وألطف أثرا ، وأقوى عُدة ، وأقدر على استغلال العلم والثقافة ، وفى يد صاحبها من الأسلحة ما ليس فى يد الأول .

وفرق آخر لاحظناه بين نوعين كذلك من أنواع السخرية ، هو أن أحدهما أميل إلى المرَح والسرور ، لا تفارق صاحبه ابتسامة تدل على نشاطه وانبساطه ، كما تدل أحيانا على تظاهره باحتمال الأوضاع ، التى عليها الحياة والأحياء . وأما الثانى فأميل إلى الجد والعبوس ، وصاحبه دائم التفكير والتقطيب ، لا تفارق فمه كلمة « أف » ، ينفِّس بها عما يشعر به من الضيق ، وما يحسُّه من تبرم بالناس

والأشياء . ومهما يكن من شيء ، فالضحك والابتسام لازمتان من لوازم السخرية الشعبية ، بحيث لا نعرف سخرية من هذا النوع تخلو منهما بحال ما .

أما سخرية الخاصة فهى عابسة حينا ، وضاحكة أحيانا ، أو هى ـ كما لاحظنا ذلك فى الأدب العربى ـ جادة ، أو كالجادة عند الأدباء المثاليين ، مبتسمة كل الابتسام عند أدباء المذهب الواقعى .

وفى الجزء الثانى من هذا الفصل ، الذى كتبناه عن السخرية ، رأينا أن الأدب العربى بوجه خاص ، ظهرت فيه جميع هذه التيارات ، فتمثلت فيه السخرية الشعبية تمثلا واضحا ، فى نقائض جرير والفرزدق والأخطل ، كما تمثلت فيه السخرية العلمية تمثلا واضحا ، فى أدب الجاحظ والمعرى ؛ هذا كله من ناحية ، ومن ناحية أخرى رأينا السخرية الضاحكة الباسمة فى الأدب الجاحظى ، كما رأينا السخرية الجادة العابسة فى أدب ابن المقفع ، وهكذا .

والآن نريد أن ننظر فى هذه الصفحات القليلة ، التى خلفها لنا أديب مصرى ، هو ابن مماتى : كيف نجد هذا اللون من السخرية ؟ وما نوعها ؟ وكيف نضعها فى مكانها اللائق بها ؟ وهل كان لهذه السخرية المصرية نظير فى السخرية العربية ؟ وهل يتفق هذا الأدب المصرى الساخر مع أخلاق المصريين ومزاجهم ؟ وبم تمتاز النكتة المصرية غالبا ؟

وقبل الإجابة عن كل هذه الأسئلة ، يحسن بنا أن نذكّر القارئ ببعض هذه الملاحظات :

ننظر فى هذه القصص التى وضعها ابن مماتى ، فنلاحظ أولا أنها توشك أن تكون خالية من ألفاظ صريحة فى الذم ، اللهم إلا فى موضع واحد ، هو فاتحة

الكتاب ، حيث قال ابن مماتى : « أما بعد ، فلما وجدت أن عقل بهاء الدين قراقوش مِحزمة فاشوش الخ » ، ثم ساق الكاتب طائفة من النوادر أو القصص وضعها ، وزعم لنفسه وللناس أن قراقوش هو صاحبها ، أو هو الشخص الذى صدرت عنه الحوادث التى تشير إليها ، فإذا قرأ الناس هذه النوادر كلها أو بعضها ، ضحكوا ما شاءوا لأنفسهم أن يضحكوا ، ثم انطلقت ألسنتهم بهجاء هذا الأمير وذمه ، والنَّيل منه ومن عِرْضه وعقله وخلقه ، ماشاءوا لأنفسهم أن يفعلوا ؛ وذلك كله دون أن يكون قلم الكاتب نفسه قد جرى بكلمة واحدة ، من الكلمات التى يذم الناس بها قراقوش ، بعد فراغهم من قراءة هذه الأقاصيص .

والحق أن ابن مماتى أفلح فى قصده هذا إفلاحا تاما ، بحيث كان كل من يقرأ نادرة من هذه النوادر ، التى أتى بها فى كتابه ، لا يسعه إلا أن يضحك مِلء فيه ، ثم لا يسعه إلا أن يندفع فى وصف الأمير بأوصاف تتدرج فى مدارج القبح والتسفيه . والقارئ لهذه النوادر الصغيرة على قلتها يجد نفسه مضطرا إلى أن يصف الأمير بهاء الدين بالطيش أولا ، ثم بالنَّزَق ثانيا ، ثم بالخُرْق ثالثا ، ثم بالغَباء رابعا ، ثم بالبَلَه خامسا ، ثم بالعَتَه سادسا ، ثم بالجنون فى نهاية الأمر !

كل ذلك دون أن يجرى على لسان ابن مماتى نفسه — كما قلنا — صفة واحدة من هذه الصفات ، بل يورد نادرته إيرادا ، من شأنه أن يُنطق القارئ نفسه بكل صفة من هذه الصفات .

على أن هذه النوادر التى أتى بها ابن مماتى ، وإن خلت من ألفاظ صريحة فى الذم أو الهجاء ، فإنها لم تخلُ فى الوقت نفسه من ألفاظ كلها فحش وبَذاء ، وبكفى أن تعلم أن الكاتب صرّح فى بعض النوادر التى كتبها بذكر

العورات ، وساق حكايات ساقطة ، لم نشأ أن يجرى بها القلم فى هذه الصفحات ، إذ لم يكن يَعنينا نشر الكتاب ، بقدر ما كان يعنينا أن نتعرف إلى هذا اللون الساخر ، الذى ظهر لنا فى أدب ابن مماتى .

وقد ذهبنا نسأل عن هذه الأوصاف التى وردت فى كتاب الفاشوش ، أهى حقا من صفات الأمير قراقوش ؟ فأدهشَنَا كثيرا — كما حدّثنا بذلك التاريخ الصحيح — أننا لا نجد لها عينا ولا أثرا .

فالتاريخ الصحيح لم يذكر أكثر من أنه كان رجلا لا يؤثر اللين ، ولا يعرف الكسلَ ولا التراخىَ فى تنفيذ الأمور ، وأنه كان بالفعل شديدا على القاهريين ، ممن استخدمهم فى بناء الأسوار وإقامة الحصون ، فكان إذا لمح منهم رجلا ذاهبا فى الصباح إلى عمله الذى يكسب منه قوت أهله ، استوقفه وأرغمه على العمل معه ، ثم أعطاه أجره ، فيأخذ الرجل هذا الأجر صاغرا ، وهو يتميز من الغيظ ، لأن الأمير سخّره ، وأوغر صدره وأتعبه ، وحرمه لذة العمل الذى كان يؤثره على غيره من الأعمال .

ومعنى ذلك أن أهل القاهرة وحدهم كان لهم العُذر فى كراهية هذا الأمير ، ولكن الأمير نفسه لم يكن أهلا لكل هذه الكراهية التى جلبها له نشاطه ، وسبّبها له إخلاصه ، وكانت نتيجة لمبالغته فى خدمة البلاد وأميرها ، ورغبته رغبة صادقة فى تأمينها وتحصينها . وأين هذا التسخير البسيط مما كان يفعله الفراعنة فى قدماء المصريين ، حين كانوا يسخِّرون الآلاف المؤلفة منهم فى بناء مقبرة ، لا تنفع غير أمير أو ملك من الملوك ، وقل أن يكون من ورائها نفع لغيره من أفراد الرعية . !

ومن يدرى ، لعل ابن مماتى ، أحب فيما أحب أن يستغل هذا الظرف الذى كان فيه الأمير بهاء الدين مكروها من أكثر القاهريين ، فأذاع عنه هذه النوادر ، التى كتبها بلغة يفهمها القاهريون ، ثم ما أسرع ما سرت سريان البرق عند غيرهم من أهل البلاد الأخرى .

وقد كان يمكن أن نصدق ابن مماتى فيما كتبه عن هذا الأمير ، لو أنه ـ كما قلنا ـ قد اختار من الأوصاف ما يتفق وأخلاق الأمير ، كأنْ يصفه بالظلم أو العسف ، أو كأن يصفه بالسَّرَف فى العمل إلى حد الخُرق أو الطيش ؛ ولكنه حرَص الحرص كله على أن يصف الأمير بالبلَه والعَتَه والشذوذ ، واعتمد فى ذلك على خياله وتصوراته ، أكثر من اعتماده على تأملاته ونظراته . فترك لخياله هذا أن يتصور الأمير على هذا النحو من الغفلة ، وهو يعلم أن الأمير قد دبر أمر القاهرة تدبيرا يشهد له بالحكمة وعلو الهمة ، وأنه أدى واجبه بشىء من الصرامة ، التى بعثت فى قلوب القاهريين خوفا منه ورهبة له .

انظر إلى قصة كهذه القصة التى حكى فيها : « أن امرأة ذهبت تشكو إليه ابنها ، لسوء معاملته لها ، فأمر الأمير بحبسه ثلاث سنين ، ثم رجعت الأم إلى بيتها ، فشق عليها بُعد ولدها عنها ، فندمت على ما فعلته ، وعادت فى اليوم التالى إلى أعوان الأمير ، فأشاروا عليها بالذهاب إليه فى مجلسه ، وأن تقول له متى رأته : لقد مضت مدة السجن يا مولانا ، وجئت لأسترد ولدى ، متى سمح بذلك الأمير . فيصيح الأمير المأفون فى وجهها : لا يا امرأة ، لا يحق لك أن تستردیه إلا مساء الغد ، فانتظرى حتى تغرب الشمس ، فإذا غرَبت فتعالى لأخذه ، فهنا نسمح لك به ! » .

أى غفلة هى أشد من هذه الغفلة ؟ وأى عتَه هو أظهر من هذا العتَه ؟ ولـكنه خيال الـكاتب وسوء قصده ، ورغبته فى إضحاك الناس من قراقوش ومن عقله .

* * *

ونحب الآن أن نتعرض للإجابة الموجزة عن الأسئلة السابقة :

ما نوع السخرية التى نراها فى كتاب ابن مماتى ؟

ليس صحيحا أن يقال إنها من نوع التهكم أو اللذع Irony ، وهو أرقى أنواع السخرية ، لأن طريقة ابن مماتى هنا لا تعتمد على ثقافة أو علم ، ولا حظ لها مطلقا من تعمق أو جِد ، ولا صلة لها كذلك بذكاء أو فهم ، ولأن الـكاتب لا يصطنع فيها التورية وغيرها من الألوان البلاغية ، الملائمة لهذا النوع من السخرية ؛ وكيف يعتمد الـكاتب فى هذه النوادر على بعض هذه العناصر ، وهو إنما كتبها للشعب .

بل من الجائز أن تكون هذه القصص الصغيرة نفسها من صنع هذا الشعب ، أخذها ابن مماتى من أفواه العامة فى المجالس ، ثم ردها عليهم قصصا ونوادر مجموعة فى كتاب ، يقرءونه فى هذه المجالس .

أقول من الجائز أن يكون الأمر كذلك ، لأننى ذكرت من قبل ، أن ابن مماتى قد اعتمد فى هذه النوادر كلها على خياله الخاص ، ومن يدرى ، لعله اعتمد عليه وعلى خيال الشعب معا ، فى وقت واحد .

وليس صحيحا كذلك أن يقال عن نوادر ابن مماتى إنها من نوع الفـكاهة أو التندر Humour ، وهو نوع ممتاز من أنواع السخرية ، لا يمهر فيه إلا رجال عندهم مواهب من نوع خاص ؛ كالموهبة التى كانت لرجل كالجاحظ من أدباء العربية ، أو ديكنز Dickens من أدباء الإنجليزية ؛ وعن الأخير بوجه أخص

يقول الإنجليز إن لفظ Humour لو لم يوجد فى اللغة الإنجليزية ، لوجد من أجل هذا الكاتب .

أجل ليس صحيحا أن يقال عن كتاب ابن مماتى إنه من نوع الفكاهة بهذا المعنى ، لأن صاحب الفكاهة أو التندر ، يحكى عن الشخص الذى يتندر به طائفة من الوقائع ، التى حدثت لهذا الشخص عينه بالفعل ، غير أن مهارة الكاتب هى فى أن يختار من هذه الوقائع أشدها تأثيرا فى النفس ، وأصدقها تصويرا لهذا الشخص ، ثم يجتهد من هذا وذاك فى أن يخلق لها جوًّا يلائمها ، ويهيئ الأذهان لتفهمها ، بحيث تترك فيها الأثر الذى أراد . وقد قلنا إن ابن مماتى يعتمد فى هذه النوادر التى كتبها على الخيال من حيث هو أولا ، فيضع الأمير نفسه جانبا ، ويخلقه خلقا ثانيا ، ويحرص على ألا تكون ثَمَّةَ صلة ما بين الشخص الحقيقى والشخص الخيالى .

فإذا لم تكن النوادر التى نحن بصددها (تهكما) بالمعنى الأول ، ولم تكن (فكاهة وتندرا) بالمعنى الثانى ، فليس بُدٌّ إذن من أن تكون سخرية فى أبسط صورها ، وهي الصورة التى أطلقنا عليها اسم (الهزل أو المُزاح) ، وقلنا إنها على ضربين : ضرب خفيف مقبول ، وضرب ثقيل ، وليس إلى احتماله من سبيل .

وهذه النوادر التى كتبها ابن مماتى هى من الضرب الثقيل ، الذى سماه الفرنسيون فى آدابهم باسم La Grosse Plaisanterie . وقد رأينا أن هذا المزاح الثقيل ، قائم فى كتاب ابن مماتى على ما سميناه (التشنيع) ، وهو ذكر الحوادث المفتعلة ، فى إطار من المبالغة الصارخة . على أن كاتبنا هنا لم يصطنع فى كتابه شيئا من التحفظ والاحتياط ، ولا حاول أن يستخدم بعض هذه العناصر ، التى قلنا إنها تميز

صاحب النوع الثانى من أنواع السخرية ، وهو (الفكاهة أو التندر) Humour ؛ فدلّ ذلك كله على أنه لا يمكن أن يكون واحداً من هؤلاء الفكهين المتندرين ، وأنه لا سبيل إلى أن نقرنه إلى الجاحظ وأبى العلاء وغيرهما من الساخرين ؛ ولكنه إذا جاز لنا أن نقيسه بأحد فى الهجاء والسخرية ، قسناه بجرير أو الفرزدق أو الأخطل ، ومن إليهم من الشعراء ، الذين اشتركوا فى المعركة الهجائية التى أشرنا إليها .

وأى فرق بين ابن مماتى فى نوادره وجرير فى نقائضه ، أكثر من أن جريرا هجا بالشعر ، وأن ابن مماتى هجا بالنثر ؛ وأن الطريقة عند هذا الأخير هى (التشنيع) ، وعند الأول أحيانا هى (التعريض) ؛ ولأمر ما شاع أن أهجى بيت قالته العرب هو قول جرير :

فغضَّ الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا !

ومع ذلك فثمة فرق بين جرير والفرزدق والأخطل من ناحية ، وابن مماتى المصرى من ناحية ثانية ؛ ذلك الفرق أن جريرا وأصحابه كانوا يعتمدون فى هجائهم على حادثة من الحوادث ، يمسَخونها أو يشوهونها أو يفسرونها تفسيرا قبيحا ، يلائم الغرض الذى من أجله نظموا قصائدهم فى الهجاء والسخرية ؛ على حين أن ابن مماتى كان يختلق الحوادث اختلاقا ، ويتوهم الأحاديث بين غريمه وبين الناس توهما ؛ وذلك أمعن فى التشنيع ، لأن التشنيع بالمعنى الذى وجدناه فى كتاب ابن مماتى ، هو تزوير الحوادث على هذا الوجه ، وإيجادها من عدم على هذا النحو . وما أتعس الشخص الذى يحارب عدوه بسلاح من هذا النوع ! ولله در القائل :

لى حيلةٌ فيمن ينمّ وليس فى الكذاب حيله !
من كان يخلق ما يقو ل فحيلتى فيه قليله !

* * *

وللإجابة عن السؤال الثانى وهو :

هل كان لهذا النوع من السخرية المصرية نظير فى السخرية العربية ؟ نقول : إننا لا نعرف أديبا عربيا جمع طائفة من النوادر ، وقصد بها إلى السخرية من شخص بعينه ، صغيراً كان أو كبيرا ، عظيما كان أو حقيرا ، على نحو ما فعل ابن مماتى . ولكن الأدب العربى بعدُ حافل بكتب من نوع آخر ، ونعنى بها كتب الحمقى والمغفلين . وسبق أن قلنا إن أصحاب هذه الكتب لم يكونوا يقصدون بها شخصاً بعينه ، ولا طائفة بعينها . والظاهر أن هذه الطريقة من طرق الإضحاك والسخرية، طريقة عربية خالصة ، وليست مأخوذة عن أمة أخرى ، كأمتى الفرس أو الروم . فلقد خالط العرب هاتين الأمتين العظيمتين، ولم يفيدوا من إحداهما شيئا ذا بال فى السخرية. فأما اختلاطهم بالفرس، فلم ينتج للأدب العربى فى هذه الناحية أكثر من كتاب كليلة ودمنة . وأما اختلاطهم باليونان فلم يؤذن فيه للأدب اليونانى ليترك أثره فى الأدب العربى ؛ ولو سُمح لهذا الأدب اليونانى أن يؤثر فى أدبنا الإسلامى ، لاتصل الكتّاب والشعراء فى بلاد الإسلام بمثل سُوفُوكْل ويوروبيد وغيرهما من أدباء اليونان ، ولعرفوا فن الرواية الهزلية Comidy بوجه خاص، ولربح الأدب العربى الإسلامى من وراء ذلك ربحاً ليس إلى وصفه من سبيل .

والواقع أن الأدب اليونانى لم يؤثر فى أدبنا الإسلامى لا بشكله ولا بموضوعه ، وتلك خسارة كبيرة علينا ، ما كان أجدرنا أن نتلافى وقوعها ، لولا أن الأدب اليونانى نفسه أدب وثنى ، ما كان ينبغى لشعب إسلامى أن يقبله ، أو لحكومة إسلامية أن تأذن به .

ومع ذلك فقد أثر الأدب اليونانى فى أدبنا الإسلامى عن طريق آخر ، هو

طريق الفكرة أو المعنى . و بحسبنا هنا الإشارة إلى أبى تمام وأبى الطيب المتنبى ، ثم الاشارة إلى قول مسلم بن الوليد فى هجاء دعبل :

أما الهجاء فدق عرضك دونه والمدح عنك كما علمت جليل
فاذهب فأنت طليق عرضك إنه عرض عزَزت به وأنت ذليل

و إلى قول أبى نواس فى نفس المعنى :

بما أهجوك لا أدرى لسانى فيك لا يجرى
إذا فكرت فى عرضك أشفقت على شعرى

فان فى هذه الأبيات لشاعرين كبيرين كمسلم وأبى نواس ، مايذكّرنا بقصة أوردها القفطى فى كتابه إخبار العلماء بأخبار الحكماء [1] عند ذكره هوميروس حيث قال :

كان هذا الرجل من رجال يونان ، وجاءه (أتابو) الماجن فقال : اهجُنى لأفتخر بهجائك ، إذ لم أكن أهلا لمديحك . فقال له : لستُ فاعلا ذلك أبدا . قال : فإنى أمضى إلى الرؤساء اليونانيين ، فأشعرهم بنكولك .

فقال هوميروس مرتجلا :

بلغنا أن كلبا حاول قتال أسد بجزيرة قبرص ، فامتنع عليه أَنَفَةً منه . فقال له الكلب : إننى أمضى فأُشعر السباع بضعفك . قال له الأسد : لأَنْ تُعيِّرَنى السباع بالنكول عن مبارزتك ، أحبُّ إلىّ من أن ألوِّث شاربى بدمك !

أجل إن أبيات أبى نواس ومسلم فى القرن الثالث الهجرى ، تذكر بهذه القصة التى رواها القفطى عن هوميروس فى القرن السابع قبل الميلاد . و برغم المسافة الزمنية

---

(١) ص ٣٦ — ٣٩ .

الكبيرة بين المؤرخ والشاعرين ، فإن أيسر ما يؤخذ من كل ذلك ، أن الأدب الإسلامى لم يخلُ قط من أفكار يونانية تسربت إليه ، ومعان أجنبية أثرت فيه .

* * *

وننتقل من ذلك أيضا إلى السؤال الثالث وهو :

هل جاءت هذه السخرية التى رأيناها فى كتاب « الفاشوش » ، مطابقة للمزاج المصرى فى الفكاهة ، أو ملائمة للطبع المصرى فى المداعبة ؟

والإجابة عن هذا السؤال ليست سهلة كما قد يظن ، وإن كنا نلاحظ فى مصر فى هذا العصر الذى نعيش فيه ، كما نلاحظ فى الأدب المصرى قبل هذا العصر الذى نعيش فيه ، أن النكتة المصرية لفظية قبل كل شىء ، فهى تقوم مرة على الجناس ، وأخرى على التورية . كما نلاحظ أيضا أنها نكتة قصيرة فى الغالب ، تمرّ سريعة كالبرق ، وتنطلق على أثرها ضَحكة سريعة ، شبيهة بألسنة النار ، التى يلعب بها الصغار ؛ أما النكتة القائمة على الفكرة ، فشىء لم يألفه الطبع المصرى بعد .

وفى كتاب «ثمرات الأوراق» لابن حجة الحموى ، نماذج كثيرة من النكت المصرية الخفيفة ، ومنها على وجه المثال قوله :

« حكى عن السِّراج الورَّاق (وهو شاعر من شعراء العصر الأيوبى) ، أنه جهّز غلاما له يوما ليبتاع له زيتا طيبا ليأكل به ، فأحضره ، فوجده زيتا حارا ، فأنكر على الغلام ذلك ، وأخذه وجاء إلى البيّاع ، وقال له : لم تفعل مثل هذا ؟ فقال له :

والله يا سيدى مالى ذنب ، لأنه قال : أعطنى زيتا للسِّراج »[١] .

« واجتمع محدث ونصرانى فى سفينة ، فصبَّ النصرانى من ركوة كانت معه فى مشربة ، وشرب ؛ وصب وعرض على المحدث ، فتناولها من غير فكر ولا مبالاة ، فقال النصرانى :

جُعلت فداك ، هذا خمر .

فقال : من أين علمت أنها خمر ؟

قال : اشتراها غلامى من خمَّار يهودى ، وحلف أنها خمر عتيق . فقال المحدث للنصرانى : أنت أحمق ، نحن أصحابَ الحديث ، نروى عن الصحابة والتابعين ، أفتصدق نصرانيا ، عن غلامه ، عن يهودى ؟ والله ماشربتها إلاَّ لضعف الإسناد[٢] !

فهذه وأمثالها من النِّكات المصرية ، التى امتلأت بها كتب الأدب ، تدلنا كما قلنا ، على أن النكتة المصرية مبنية على اللفظ أكثر من المعنى ؛ والاعتماد فيها على التورية ، أكثر من الاعتماد على أى شىء آخر .

والظاهر أن النكتة المصرية كالنكتة العربية ، لاتغفل العناية بهذه الأمور وأشباهها ، إلا عند ما تتحدث عن الحمق ، والمجانين ، والمغفلين ، والطُّفيليين ، وغيرهم من الشخصيات التى تكون صحيحة الوجود فى أول الأمر ، ثم تصبح ضربا من الأساطير فى نهايته .

ومن هذا القبيل كل ما تعلم عن قصص «جحا» ، و « أشْعَب » ، و«هبَنَّقَة» ، و « ابن الجصّاص » ، وغيرهم . ومن مثل ذلك :

---

(١) كتاب ثمرات الأوراق لابن حجة الحموى ص ٥٧ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٠ .

« قيل إن لصا تسوَّر رَوزنة[١] بيت، وكان اللص مغفلا ، فنظر من خلال الروزنة ، فوجد رجلا وزوجته ، وهى تقول له : من أين اكتسبت هذا المال العظيم ؟

فقال لها : كنت لصا ، وكنت إذا تسوّرت روزنة بيت ، صبرت إلى أن يطلع القمر ، فإذا طلع اعتنقت الضوء الذى فى الروزنة ، وتدليت بلا حبل ، وقلت : شولم ! شولم ! ونزلت ، فآخذ جميع ما فى البيت ؛ ولا تبقى ذخيرة من ذخائر البيت إلا ظهرت لى . ثم أقول : شولم ! شولم ! وأصعد فى الضوء ، ولا ينتبه أحد من أهل البيت ، وأذهب بلا تعب ولا كُلفة .

فسمع اللص ذلك ، فصبر إلى أن طلع القمر ، ونام أهل البيت ، فتعلق فى ضوء الروزنة ، فوقع ، وتكسَّرت أضلاعه ، فقام إليه صاحب البيت ، وقبض عليه ، وسلمه إلى صاحب الشرطة » .

« وقيل إن أحد المغفلين ، سأل مغفلا آخر :

كم فى هذا الشهر من يوم ؟

فنظر وقال : لست والله من أهل هذه المدينة ! » .

« وسمع أحد المغفلين أن صوم يوم عرفة يعدل صوم سنة كاملة ، فصام إلى الظهر ، وقال :

يكفينى ستة أشهر ! » .

« وجاء جماعة إلى رجل مغفل ، يسألونه فى كفن لجارية لهم ماتت ،

فقال : ما عندى الآن شىء ، ولكن عاودونى فى وقت آخر !

قالوا : أفنملِّحُها إلى أن يتيسر عندك شىء ؟ » .

***

(١) الروزنة : الكوة .

والناظر فى هذه النوادر وأشباهها ، يجد أنها تضحك لا بلفظها ، ولكن بغرابتها وشذوذها ؛ كما يلاحظ فى هذه النوادر أنها قصيرة، حتى إن بعضها لا يعدو ألفاظا يسيرة ، يمكن أن يضمَّها سطر واحد أو نصف سطر واحد .

ثم لا شك أن القارئ التفت بنوع خاص إلى النادرة الأخيرة من هذه النوادر ، وعرف أن لها نظيرا فى كتاب ابن مماتى . ومن هنا يدرك صحة ما قلناه من أن ابن مماتى قد اخترع هذه القصص اختراعا ، وأخذ بعضها من أفواه العامة ، وكتب بها كتابا على مثال سابق احتذاه ، ونموذج حاكاه ؛ وهذا المثال هنا هو كتب المغفلين والحمق . والفرق بين ابن مماتى و بين من سبقه فى ذلك ، هو أن ابن مماتى جمع هذه النوادر كلها ، وألصقها إلصاقا بالأمير بهاء الدين قراقوش ، وأما الذين من قبله فجمعوا نوادرهم، وألصقوها بأشخاص ربما كان لهم وجود حقيقى فى أول الأمر ، ثم أصبحوا أبطالا لقصص خيالية ، ونوادر شعبية فى آخره .

* * *

و بعد ، فإنا لانستطيع أن نخفى عجبنا من ظاهرة أخرى فى كتاب ابن مماتى ، وهي اشتماله على عدد بسيط من النوادر ، التى نسبها إلى بهاء الدين قراقوش . فهل كان كتاب الفاشوش لا يشتمل على أكثر منها ؟ وهل ضاق خيال ابن مماتى ، فلم يتسع لأكبر من هذا العدد ؟

الواقع أننا نميل إلى الظن بأن النسخة الأصلية من كتاب الفاشوش لابن مماتى ، لم يُعثر عليها بعد ، وأنه لو عُثر عليها لوجد بها أكثر من هذا العدد .

بين الوهرانى وابن مماتى

ننظر فى الآداب الشعبية التى خلفها لنا العصر الأيوبى ، فنرى أنها اشتملت على كتاب آخر — غير كتاب الفاشوش لابن مماتى — هو الكتاب الذى أشرنا إليه فى بعض الفصول السابقة ، ونعنى به « رسائل الوهْرانى » .

والوهْرانى « هو أبوعبد الله ، محمد بن محرز بن محمد الوهرانى ، الملقب ركن الدين ، وقيل جمال الدين ، أحد الفضلاء الظرفاء ، قدم إلى الديار المصرية فى أيام السلطان صلاح الدين رحمه الله ، وفنه الذى يَمُتُّ به صناعة الإنشاء . فلما دخل البلاد ، ورأى بها القاضى الفاضل وعماد الدين الأصفهانى وتلك الحلبة ، علم من نفسه أنه ليس من طبقتهم ، ولا تنفُق سِلَعه مع وجودهم ، فعدل عن طريق الجد ، وسلك طريق الهزل ، وعمل المفاجآت والرسائل المشهورة المنسوبة إليه ؛ وهى كثيرة الوجود بأيدى الناس ، وفيها الدلالة على خفة روحه ، ورقة حاشيته ، وكمالِ ظَرفه »[1] .

وهكذا جاء كتاب الوهرانى هذا ، كما جاء كتاب ابن مماتى دليلاً على أن العصر الأيوبى ، برَغم ميله إلى الجد ، وبرغم اشتغاله بأمور الحرب ، كان له جانب

---

(١) انظر وفيات الأعيان لابن خلكان جزء أول ص ٥١٨ .

آخر ، هو جانب الهزل ، فأضاف هذا الهزل لونا براقا إلى مجموعة الألوان القاتمة ، التى اصطبغ بها عهد الدولة الأيوبية .

والوهرانى نسبة إلى «وَهْران» فى بلاد المغرب ، ومن الضرورىّ هنا أن نوضح أن المغاربة كانوا مكروهين من أهل مصر ؛ وذلك منذ العصر الفاطمى ، حين كان الخلفاء الفاطميون يؤثرون هؤلاء المغاربة ببعض الوظائف العليا ، فكثر تهكم أهل مصر بهم ، وسخرهم من طبائعهم ؛ واستمر أهل مصر يفعلون ذلك حتى كان العصر الأيوبى ، فعصر المماليك ؛ فوجدنا فى كتاب النجوم الزاهرة لأبى المحاسن ، أثرا لهذه الظاهرة ، بحيث كان أهل مصر إذا وصفوا رجلا بكثرة الكلام ، مع الغلظة والادعاء والغباوة ، سمّوْه « بالمغربى »[1] .

ومن ثم نفهم سببا من الأسباب التى من أجلها أخفق الوهرانى فى الحصول على وظيفة من وظائف ديوان الإنشاء ، والأسبابِ التى من أجلها ذهب هذا الرجل يسخر من أهل مصر ، ويتناول بتهكمه القضاة والفقهاء والعلماء والكتاب والشعراء والوزراء والمتصوفة ، بل أتباع المذهب السنى نفسه أيضا ؛ وربما كان الغرض الأول من أغراض الوهرانى فى رسائله ، هو النيْل من كبار الدولة الأيوبية ، وإخافتهم وإزعاجهم ، حتى يضطروا إلى إسكاته ، بمساعدته ليحصل على وظيفة من وظائف الدولة .

وانظر إلى الوهرانى يغمز القاضى الفاضل فى شىء من الحذر والرفق ، إذ جاء فى رسالة من رسائله التى نشير إليها ، توجه بها إلى الأمير نجم الدين بن مُصَال ، فقال

---

(١) النجوم الزاهرة : حوادث سنة ٨٤٣ هـ ، وفيها توفى الأمير سودون الظاهرى المغربى. انظر الجزء السابع — قسم أول . طبعة Popper .

كان العبد قد عزم على مخاطبة الناضل ـ أدام الله عزه ـ فى هذا المعنى ، فذكر قول القائل :

أتيت فؤادها أشكو إليه فلم أخلُص إليه من الزحام .!

فقال يخاطب نفسه : أيها الرجل الرقيع ، بأى شىء تريد أن تكاتب هذا السيد الرئيس؟ ما أنت من النظراء ، ولا من الأكفاء ، فتكتب إليه تسأله عن حاله ، وتستطلع طِلع أخباره ؛ ولو فعلت ذلك كنت من الأغبياء المجانين . . . . . .

ولا هو طيب النفس عليك ، ولا جميل الرأى فيك ، فتكتب إليه تسأله أن يصطنعك بعنايته ، ويدبر أمرك مع ابن ظُفير . . . ألا تراك سلّمت عليه (أى على الفاضل) فى القاهرة، فزوى وجهه عنك ، حتى كأن الشمس طلعت عليه من جبينك ! إلى آخر ما جاء بهذه الرسالة[1] .

***

ومن رسائل الوهرانى التى كتبها على لسان بغلته ، إلى الأمير عز الدين مُوسَك[2] :

بسم الله الرحمن الرحيم :

المملوكة (ريحانة) بغلة الوهرانى ، تقبل الأرض بين يدى المولى عز الدين ، حسام أمير المؤمنين ، نجّاه الله من حر السعير ، وعطّر بذكره قوافل العِير ، ورزقه من القُرط والتبن والشعير ، وَسْقَ مائة ألفِ بعير ، واستجاب فيه صالح الأدعية من الجم الغفير ، من الخيل والبغال والحمير . وتُنهِى ما تقاسيه من مواصلة الصيام ،

(١) رسائل الوهرانى ـ مخطوط بدار الكتب المصرية رقم ٢٤ أدب ص ٢٤٧ ، ٤٨ ب

(٢) هو من أمراء الدولة الأيوبية ، وخال صلاح الدين ، وإليه نسب شارع الموسكى المشهور بالقاهرة .

وسوء القيام ، والتعب فى الليل والدوابُّ نيام . قد أشرفت مملوكته على التلف ، وصاحبها لا يحتمل الكُلف ، ولا يوقن بالخلَف ، ولا يحلّ به البلاء العظيم ، إلا فى وقت حاجتى إلى القضيم ، لأنه فى بيته مثلُ المِسك العَبيرِ ، والإطريفل[1] الكبير ، أقلُّ من الأمانة فى الأقباط ، والعقل فى رأس قاضى سنباط ، فشعيره أبعدُ من الشعرى العَبُور ، لا وصول إليه ولا عُبور ، وقُرطه أعز من قرط مارية ، لا يخرجه بيع ولا هبة ولا عارية ؛ والتبن أحبُّ إليه من الأُبن ، والجلُبَّانُ أعز من دُهن البان ، والقضيم بمنزلة الدر النظيم ، والقضّة أجمل من سنابك الفضة . وأما الفول فمن دونه ألف باب مقفول[2] ، فما يهون عليه أن يعلف الدواب إلا بعيون الآداب ، والفقه اللباب ، والسؤال والجواب ، وما عند الله من الثواب .

ومعلوم يا سيدى أن البهائم لا توصف بالحلوم ، ولا تعيش بسماع العلوم ، ولا تطرب إلى شعر أبى تمام ، ولا تعرف الحارث بن همام ، ولا سيما البغال التى تشتغل فى جميع الأشغال ؛ شبكةٌ من القصيل ، أحب إليها من كتاب التحصيل ، وقُفّةٌ من الدريس ، أشهى إليها من فقه محمد بن إدريس ؛ لو أكل البغل كتاب المقامات ، مات ، فإن لم يجد إلا كتاب الرضاع ، ضاع ؛ ولو قيل له أنت هالك ، إن لم تأكل موطأ مالك ، ما قبل ذلك ؛ وكذلك الجمل ، لا يتغذى بشرح أبيات الجمل ، وحُزمةٌ من الكَلاَ ، أحب إليه من شعر أبى العَلاَ ، وليس عنده طيب ، شعرُ أبى الطيب ؛ وأما الخيل ، فلا تطرب إلا لسماع الكيل ؛ وإذا أكلت كتاب الذيل ، ماتت فى النهار قبل الليل ، والويل لها ثم الويل ، ولا تستغنى الأكاديش عن الحشيش ، بكل ما فى الحماسة من شعر أبى الحَرِيش .

---

(١) الإطريفل دواء مؤلف وهو نوعان كبير وصغير — انظر شرح القاموس . وهو الإطريفال أيضا كما فى تذكرة داود .

(٢) كذا بالاصل والصحيح مقفل ، والكتاب لا يخلو من عامية .

وإذا أطعمتَ الحمار ، شِعْر ابن عَمَّار ، حل به الدَّمار ، وأصبح منفوخا كالطَّبل ، على باب الإصطبل . وبعد هذا كله قد راح صاحبها إلى العلاَّف ، وعَرَضَ عليه مسائل الخلاف ؛ وطلب من تبنه خَمس قِفاف ، فقام إليه بالخفاف ، فخاطبه بالتقعير ، وفسَّر عليه آية العِير ؛ وطلب منه وِيْبة شعير ، فحمل على عياله ألف بعير ؛ فانصرف الشيخ منكسر القلب ، مُنْغَاظا[1] من الثلْب ، وهو أنحسُ من ابن بنت الكلب ، فالتفت إلى المسكينة ، وقد سلبه الغيظ ثوب السكينة ؛ وقال لها : إن شِئت أن تكدى فكدى ، لا ذُقتِ شعيرا ما دُمتِ عندى !

فبقيت المملوكة حائرة ، لا قائمة ولا سائرة ؛ فقال لها العلاّف : لا تجزعى من حباله ، ولا تلفتى على سباله ، ولا تنظرى إلى نفقته ، ولا يكون عندك أخسُّ من عنفقته .

هذا الأمير عز الدين ، سيف المجاهدين ، أندى من الغمام ، وأمضى من الحسام ، وأبهى من البدر ليلة التمام ، يَرْثِى للمحروب ، ويفرج عن المكروب ، وهو نَبىّ بنى أيوب ؛ لا يرد قائلا ، ولا يخيب سائلا .

فلما سمعت المملوكة هذا الكلام ، جذبت الزمام ، ورفصت الغلام ، وقطعت اللجام ، وشقّت الزحام حتى طرحت خدها على الأقدام ، ورأيك العالى والسلام .

ما أظرف هذه الرسالة فى طلب هبة ؟ لا شك أن الوهرانى حين عمد إلى هذه الطريقة فى المدح وطلب المال ، كان موفقا فى غرضه من ناحية ، وكأنه كان مدفوعا إلى ذلك بدافع من يأسه من الوظيفة التى أتى مصر لأجلها ، من ناحية ثانية .

---

(١) كذا بالأصل وهى عامية وصحتها مغتاظا .

ثم من رسائل الوهرانى رسالة يتهكم فيها برجال الدين ، وبكثرة ما يقومون به من الصلاة والطعام فى رمضان . وقد خاطب بها أحد القضاة ، ومنها قوله :

كلما ذكر الخادم تلك الموائد الخصيبة ، وما يجرى عليها من الخواطر المصيبة ، علم أن التخلف عنها هى المصيبة ؛ لكنه إذا ذكر ما يأتى بعدها من القيام والقعود ، والركوع والسجود ، علم أن أجرة ما يأكله فى تلك الوليمة ، نحوٌ من عشرين تسليمة ؛ كل لقمة بنقمة ؛ ما تحصل له الشبعة ، إلا بأربعين ركعة ؛ فتكون الدعوة عليه لا له ، والحضور فى الشرطة أحبَّ إليه .

فزهد الخادمُ حينئذ فى الوصول ، وقنع بالمحصول ؛ إذ ليس له من الدين ، ولا قوة اليقين ، ما يهجر معه مؤاكلة الوجوه القمرية ، بمشاهدة السنة ؛ ولا يترك الراحة تحت المراويح ، إلى القيام بسنة التراويح ؛ لأنه فى ذلك على رأى القاضى النجيب ، الذى إذا دُعى إليها لا يجيب ، فموعد الإلمام ، انقضاء شهر الصيام[1] .

* * *

ومن رسائل الوهرانى وفيها يسخر من الفقهاء المدرسين رسالة عنوانها « سؤال سأل عنه ابن الحكم المدرس لمذهب الحنفية » :

ما تقول السادة الفقهاء رضى الله عنهم فى رجل يرى أنه من أئمة الشرع ، ومن أرباب الأصل والفرع ، ويعتقد أن له الدرجة المنيفة ، فى مذهب أبى حنيفة ؛ ويقول : لو جادلت مالكا ، لصرت له مالكا ، ولو لقيت ابن ادريس ، لسلم إلىّ منه التدريس ، ولو أدركت ابن حنبل ، لكنت أتقى منه وأنبل .

---

(١) رسائل الوهرانى ص ٤١ ب

وسرُّه ـ وفقكم الله ـ يخالف نجواه ، وفعله يكذب دعواه ، وذلك أنه يبيح الفروج للفروج ، ويستحل سفك الدما ، على البيض والدُّمى ، ويأخذ بأرخص الأقوال ، فى استباحة الأموال الخ .

والجواب على لسان الفقهاء :

إن صح ما ذكر عنه من هذا الحال ، وكثرة الإخلال ، فيجب أن يُعزَّر بَدِيًا ، ويُنبذ قصيًا ، بعد أن يُنتف من ذقنه ما طال وما قصر وما بين ذلك وما كان ربك نسيا ، وليس من التحقيق الجائز أن يدفع مال الوقف للعجائز ؛ فإن فعل ذلك أُخذ من نفقته ، مع شعرات من عنفقته ، وإن يَثِبْ للفرار ، فليس له إلا الطرطور والحمار . هذا مقتضى الدليل ، وحسبنا الله ونعم الوكيل[١] .

* * *

ومما كتب فى التهكم بالشعراء رسالة له فى نقد قصيدة ميمية تنسب إلى رجل اسمه الكندى ، فخر فيها بنفسه[٢] ، وجاء فى هذا الفخر قوله :

سبقتُ إلى غايات كل فضيلة يعزُّ عَلَى طُلَّابِهَا العربَ وَالعُجْما[٣]

قال الوهرانى : فهذا البيت المصيبة العظمى ، والطامة الكبرى ، وليس ينبغي أن يُجاوَب فيه إلا بجواب الفتى الأُمِّىّ لعدى بن الرقاع ؛ وهو أن يُحضره بعض السلاطين ، ويقول له :

أنت قلت : سبقت إلى غايات كل فضيلة (البيت)

فيقول له : نعم . فيرمى له قوسا . ويقول له : حُزّ[٤] هذا القوس .

---

(١) رسائل الوهرانى ص ٥

(٢) ص ١٤٩

(٣) كذا بالأصل

(٤) من الحوز وهو الاغراق فى نزع القوس .

فيقول : ما أقدر . فيقول : اصفعوه ، فيصفع .

ثم يُقدِّم له فرسا ورمحا ودرعا ، و يقول له : قاتل هذا الغلام بهذا السلاح .

فيقول . ما أقدر ولا أعلم ، فيصفع .

ثم يقول له : حل لنا شكلا من إقليدس . فيقول : لا أعلم ، فيصفع .

فيقول : يابن عشرة آلاف (قَحبة) ؛ وأىّ شىء تعلم حتى تقول :

سبقت إلى غايات كل فضيلة !

فيقول : أعلم شيئا من النحو والتصريف لا غير .

فيقول له : ولأجل النحو والتصريف تقول :

سبقتُ إلى غايات كل فضيلة !

ثم قال الوهرانى : وكذلك يكون حاله فى البيت الذى بعد هذا ، وهو قوله :

وملَّكنى رقَّ المناقب أننى أحطت بآداب الورى كلها علما

وهكذا أيضا فى البيت الذى بعده ، وهو قوله :

فما منصف ممن ترقت به العلا برقراقة من أخمصى فوقه وصما[1]

وهذا البيت ـ والله ـ من الشعر النحس ، الذى لو بقى فى بطنه لأخذه القُولَنج زائدا على ما فيه من الرعونة والقِحَة والاستخفاف بالممدوح . وأما قوله :

إذا وطئ الضرغام أرضا تضايقت خُطا وحشها عنه فيوسعها هزما

فإنه و إن كان من الشعر الذى تمجه الأسماع ، وتشناه النفوس ، فما له عندى جواب إلا (الضُّراط) المغربى الصلب ؛ يُصَفَّي فى جوف لحية قائله ، من مكان قريب !

(١) كذا بالأصل

وللوهرانى فيما عدا ذلك مقامات ومنامات اشتمل عليها كتابه الذى نحن بصدده . ومن أهمها « المنام الكبير » ، وفيه تخيل أنه رأى فيما يرى النائم كأن القيامة قامت ، والمنادى ينادى : هلموا إلى العرض على الله . قال : فخرجت من قبرى أيمم الداعى ، إلى أن بلغتُ أرض المحشر الخ[١] .

وهناك التقى الوهرانى بأناس كثيرين ، قُدامى ومحدَثين ، منهم الفقهاء والعلماء ، ومنهم الخطباء والأدباء والشعراء ، وفيهم الفلاسفة والمتكلمون ، والمتصوفة والملوك والسلاطين ، وذلك كله على نحو يذكرنا برسالة الغفران لأبى العلاء المعرى .

واتخذ الوهرانى من منامه هذا وسيلة إلى السخرية بهؤلاء جميعا ، فسخر منهم فى أسلوب يمتاز بالخفة والطرافة والرشاقة ؛ وذلك بالقياس إلى أسلوب المعرى الذى امتاز بشىء من الجد والتكلف ، كما امتاز بميل إلى الإغراب فى اللفظ ، والغموض والالتواء فى المعنى .

وكذلك عرّض الكاتب بالكثيرين من أفاضل مصر ، وأهل العلم والأدب والسياسة فيها ، وكان ممن عرّض بهم العمادُ الأصفهانى ، وذلك فى رسالة هزلية من رسائله ، بعث بها إلى صديق له بدمشق ، بدأها بغزل فيه شىء غير قليل من الفحش ، وختمها بالسخرية من العماد الأصفهانى ، ومن غلام اسمه «مرتضى المغنى» كان يحبه العماد ، ويفتن به[٢] .

* * *

ثم من الأمثلة على رسائل الوهرانى قوله فى قطعة صغيرة منها :

---

(١) رسائل الوهرانى ص ٨ ب

(٢) رسائل الوهرانى ص ٨٦ ب

عشرة أشياء من أبواب البر تسخط الله ، وترضى الشيطان ، وهى:

انقطاع ابن الصابونى إلى الله عز وجل فى القرافة . وتعصبُ الخبوشانى لقبر الشافعى ، وتنفل القاضى قبل صلاة الجمعة و بعدها ، . . . . . ، وصلاة السديد الطبيب التراويح فى شهر رمضان ، وبكاء الفقيه البهاء على المنبر يوم الجمعة ، وقراءة الوهرانى السبع فى صبيحة كل يوم ، وسماع ابن عثمان لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى جمعة واحدة و إقراؤه لذلك على رءوس الأشهاد ، وحضور ابن مماتى لمجالس الوعظ فى القرافة ، و بكاؤه عند قراءة القرآن ، . . . . . ، و بنيان ابن أبى الحجاج لقبر آسية ، وترتيب القراء لكل جمعة فيه .

ذكروا أن هذه الأعمال الصالحة لا يعبأ الله بها ، وهى أحب إلى إبليس من كبار الذنوب[1] . !

* * *

تلك أمثلة من كتابات الوهرانى ، وهى فى جملتها مكتوبة بلغة عربية صحيحة ، و بأسلوب العصر الذى كتبت فيه تلك الرسائل الهزلية اللطيفة . ثم هى أيضا لا تقوم على طريقة واحدة من طرق السّخرية ، كما نجد ذلك فى كتاب ابن مماتى ، بل هى منوعة فى موضوعها ، منوعة فى الطرق التى سلكها الوهرانى فى تأليفها :

فمرة يجىء تهكم الكاتب فى صورة رسالة ، وفى أخرى يأتى تهكمه فى صورة مقامة ، وفى ثالثة يكون على هيئة منام ، ثم فى رابعة يأتى فى ثوب حكم وأمثال ، يخترعها الكاتب اختراعا ، ولا يعتمد هنا على الحكم القديمة، أو الأمثال المحفوظة .

---

(١) رسائل الوهرانى ص ٨٩ ا

وذلك كله بخلاف ما نرى عند ابن مماتى ، فقد اعتمد على طريقة واحدة ، هى طريقة النوادر ، واصطنع لها لغة شعبية خالصة هى لغة العامة .

* * *

ومع ذلك فلم تبلغ رسائل الوهرانى ، على تنوعها وطرافتها وفصاحتها ، بعض ما بلغته نوادر ابن مماتى ، على قصرها وقلتها وعاميتها ؛ فما سبب ذلك يا تُرى ؟

سببه فيما نعتقد أن موقف كل منهما كان مغايرا كل المغايرة لموقف الآخر ، من وجوه عدة :

فالوهرانى رجل غريب ، أخفق إخفاقا تاما فى الحصول على وظيفة حكومية ؛ وابن مماتى رجل مصرى ، تقلد وظيفة من أكبر وظائف الدولة الأيوبية ، وكان له اتصال بكبرائها وفضلائها وذوى الجاه فيها ، وكانت له مشاركة ظاهرة فى توجيه السياسة المصرية الداخلية نفسها كما رأينا .

ورسائل الوهرانى مكتوبة باللغة العربية الصحيحة فى الجملة ، والأسلوب البديعى المنمق ، فى حين أن كتاب ابن مماتى مكتوب باللغة العامية ؛ ومن ثم ذاعت رسائل الوهرانى فى أوساط ضيقة ، هى الأوساط التى لها حظ من الأدب والثقافة .

أما كتاب ابن مماتى فلا بد أنه وصل إلى الشعب كله ، وتناقله الأفراد يوما بعد يوم ، وساعد على هذا التناقل قصر النوادر التى اشتمل عليها .

ثم إن الوهرانى كان كثيرا ما يصرح بأسماء الذين تعرض لهم فى كتابه (الرسائل) ، وكاد يمسُّ جانبا حقيقيا من جوانب النقص فيهم ، وهو حين كان لا يصرح بأسمائهم يأتى بعبارات تدل عليهم ، وتشير إليهم ؛ فلا يحتاج القارئ إلى جهد فى معرفتهم .

وفى التصريح بذكر أسماء الخاصة ، وتناولهم على هذه الطريقة خطر عظيم على الكاتب ، إلا حين يترفق الكاتب نفسه ترفقا عظيما ، ويلذع لذعا خفيفا ، ويعتمد اعتمادا واضحا على التورية وغيرها من الأنواع البديعية ، التى تضمن السلامة لصاحبها فى مثل هذه المواقف المحرجة .

أما ابن مماتى — فإنه وإن صرّح بأنه يقصد فى كتابه إلى ذم قراقوش — فإنه لم يمسّ جانبا صحيحا من عيوبه ؛ فلو لم يذكر صراحة أنه قصد إلى رجل بعينه ، لما استطاع الناس أن يعرفوا هذا الرجل بعينه . ومن ثم وجدت نوادره الطريق سهلا أمامها للذيوع والانتشار ، واشتد ذيوعها كما رأينا فى الوقت الذى ضعف فيه الأمير ، واصطلحت عليه محن كثيرة ، انتهت به إلى لزوم بيته .

***

أما بعد ، فهذه صفحة من صفحات السخرية المصرية ، ألممنا بها إلمامة سريعة ، وضاهيناها بصفحات أخرى من السخرية العربية مضاهاة يسيرة . وغرضنا من وراء ذلك أن نجذب الناشئة فى مصر والشرق ، إلى بحث الموضوعات الأدبية العامة على هذا النحو ، وأن نصل بينهم وبين أدبنا المصرى بوجه أخص .

وما أشدّ سرورنا بعد ذلك حين يأخذ الكثير من بحوثنا الأدبية ، مثل هذا الاتجاه ؛ فلا بأس على البحث نفسه أن يكون أقليميا ، ولا ضرر على التاريخ الأدبى أن يكون موضوعيا لا زمنيا . والله نسأل أن يوفقنا دائما إلى ما فيه خير العلم والأدب .

كلمة شكر

يسرنى أن أقدم وافر الشكر ، لحضرة الأديب ، محمد عبد العاطى حلاوة أفندى الطالب بكلية الآداب بجامعة فؤاد الأول ، لاشتراكه معى فى تصحيح التجارب .

كما يسرنى أن أسدى خالص شكرى لحضرات الناشرين أصحاب مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى وأولاده على ما بذلوه من جهد فنى فى إخراج الكتاب على هذه الصورة ؟

مصر الجديدة فى أول يناير ١٩٤٥ ؟ **المؤلف**

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوع
٤	المقدمة
٩	قراقوش
١١	قراقوش فى حراسة القصر الفاطمى
١٦	قراقوش منشىء الأعمال الحربية
٢٠	قراقوش الجندى فى حصار عكاء
٢٣	قراقوش يحمى عرش العزيز
٢٩	قراقوش الوصى على عرش المنصور
٣٤	قراقوش وابن مماتى
٣٦	ترجمة ابن مماتى
٤٧	كتاب الفاشوش فى حكم قراقوش
٦٢	نظرة فى كتاب الفاشوش
٦٨	حكم التاريخ
٧١	**السخرية فى الأدب**
٧٢	أنواع السخرية فى الأدب
٨٥	السخرية فى الأدب العربى
١١١	السخرية فى أدب ابن مماتى
١٢٦	بين الوهرانى وابن مماتى

فهـــرس الأعلام

« ا »

ابن الأثير (ضياء الدين الجزرى) : ٢٣، ٢٤

أحمد بن عبد الوهاب : ٩٩، ١٠٠، ١٠١

أحمد بن حنبل : ١٣١

الأخطل : ٧٦، ٨٨، ١١٣

إسماعيل باشا : ١٧

أسد الدين (شيركوه) : ٣، ٩، ١٠، ٢٥، ٣٩، ٤٠

الأفضل بن صلاح الدين : ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢

الإسكندر (المقدونى) : ١٠٨

أشعب : ١٢٣

الأحنف بن قيس : ١٠٨

الأعشى : ١٠٢

أتابو : ١٢١

أوس بن حجر : ١٠٤

إياس بن معاوية : ١٠٨

(ب)

باقل : ١٠٨

البحترى : ١١٠

بدر الجمالى : ١٨ ، ٣٨ ، ٣٩

بشار بن برد : ٩٣، ٩٤، ٩٥، ٩٦، ١٠٥

البعيث : ٨٨

بلقيس : ١٠٨

أبو بكر الهروى : ٤٣

بوران : ١٠٨

(ت)

أبو تمام : ١٢١

(ج)

الجاحظ : ٧٨، ٩٢، ٩٣، ٩٦، ٩٧، ٩٨، ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٩، ١١٠، ١١٣، ١١٧، ١١٩

جحا : ٢٣، ٦٣

جذيمة الأبرش : ١٠٨

جرير : ٧٦، ٨٨، ٨٩، ١١٣، ١١٩

ابن الجصاص : ١٢٣

جعثن : ٨٩

جمال الدين القفطى : ٣٧، ٤٢، ١٢١

جوهر الصقلى : ١٨

(ح)

حاتم : ١٠٨

الحاكم بأمر الله : ٦٦

أبو الحريش : ١٢٩

حسام الدين أبو الهيجاء : ٢٦

الحطيئة : ٨٨

حماد عجرد : ٩٤

ابن حنبل (أحمد) : ١٣١
ابن الحجاج (علم الدين) : ٤٤
(خ)
الخيوشانى : ١٣٥
ابن خلكان : ٣٥، ٤٥
(د)
دارا : ١٠٨
دعبل : ١٢١
دكنز (تشارلز) ٨٢، ٩٨، ١١٧
(ذ)
ذو الرمة : ٨٨
(ر)
الراعى : ٨٨
ابن الرومى ٩٨، ٩٩
ريتشارد : ٢٥
(ز)
الزباء : ١٠٨
زنكى : ٩
ابن زيدون : ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩
(س)
السراج الوراق : ١٢٢
ابن سناء الملك : ٢٧، ٦٤
السموءل : ١٠٨
السيوطى (جلال الدين) : ٧، ٤٥، ٥٥، ٥٦، ٥٩، ٦٠
سوفوكل : ١٢٠
سويفت : ٧٧، ٧٨
(ش)
شمس الدولة بن أيوب : ١١
شيرين : ١٠٨
(ص)
ابن الصابونى : ١٣٥
صفر الدين بن شكر : ٣٧، ٤١، ٤٢
صلاح الدين بن أيوب : ٣، ٤، ١٠، ١١، ١٢، ١٣، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ١٩، ٢٠، ٢٢، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٧، ٣٢، ٣٣، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٩، ٤٧، ٥٥، ٥٩، ٦٢، ٦٥، ٦٦، ٦٧، ٦٨، ١٢٦
أبو الصلت : ٣٩
(ض)
الضحاك : ١٠٨
(ظ)
الظاهر (ابن صلاح الدين) : ٢٣، ٢٥، ٣١، ٤٣
ابن ظفر : ١٢٨
ظمياء : ٨٩
(ع)
العادل بن أيوب : ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٩، ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣، ٣٦، ٤٠، ٤١
العاضد الفاطمى : ٣، ١٦٩
ابن عبدوس : ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨
العزيز (ابن صلاح الدين) : ١٧، ٢٣، ٢٤، ٢٥، ٢٦، ٢٧، ٢٩، ٣٣، ٣٦، ٦٥
عدى بن الرقاع : ١٣٢

عز الدين بن موسك : ١٢٨، ١٣٠
على (رضى الله عنه) : ٨٨
العماد الأصفهانى : ٣٦، ٦٤، ٦٩، ١٢٦، ١٣٤
عماد الدين الشهيد : ٩
عمر (رضى الله عنه) : ١٠٤
عمر طوسون (الأمير) : ٤٥
عيسى الهكارى : ٣، ٢٠

(ق)

ابن القارح : ١٠٢، ١٠٤
قراقوش (بهاء الدين) . . .
قريط بن أنيف : ٨٧
قارون : ١٠٧، ١٠٨
قيس بن زهير : ١٠٨

(ك)

الكامل (ابن العادل) : ١٧، ٦٥
كزانوفا : ٨، ٤٥، ٦٦، ٦٧
الكندى (شاعر) : ١٣٢

(ل)

لبيد بن ربيعة : ١٠٣

(م)

المادرائيون : ٤٢
مالك بن أنس : ١٢٩، ١٣١
المتنبى : ١٢١، ١٢٩
محمد على باشا : ١٧
محمد بن ادريس الشافعى : ١٢٩، ١٣١٤
محمد (صلى الله عليه وسلم) : ٨٨
محيى الدين بن عبد الظاهر : ٥٥
مرتضى (المغنى) : ١٣٤
المستكفى بالله : ١٠٦
مسلم بن الوليد : ١٢١
المعرى (أبو العلاء) : ١٠٢، ١٠٣، ١٠٤، ١٠٥، ١١٣، ١١٩، ١٢٩، ١٣٤
المعيدى : ١٠٨
أبو المحاسن بن تغريبردى : ١٢٧
ابن مكنسه : ٣٩
أبو المليح (الخطير مماتى) : ٣٦، ٣٨، ٣٩، ٤٥
ابن المقفع : ٨٣، ٩٠، ٩١، ٩٢، ٩٣، ٩٦، ٩٧، ١١٣
ابن مماتى (الأسعد) : ٦، ٧، ٨، ٣٤، ٣٥، ٣٦، ٣٧، ٤٠، ٤١، ٤٢، ٤٤، ٤٥، ٥٣، ٦٠، ٦٣، ٦٥، ٦٦، ٧٠، ٨٥، ١١١، ١١٢، ١١٣، ١١٤، ١١٥، ١١٦، ١١٧، ١١٩، ١٢٠، ١٢٥، ١٢٦، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٧
المنصور (الأيوبى) : ٢٩، ٣٠، ٣٣، ٦٥
المنصور (الخليفة العباسى) : ٩١، ٩٢
منصور الحميرى : ٩٤
المهدى (الخليفة العباسى) : ٩٤
المؤتمن : ١١
المؤيد الشيبانى : ٤١

(ن)

نابغة بنى جعدة : ١٠٢

النجاشى : ٨٧

نجم الدين بن مصال : ١٢٧

نجم الدين أيوب : ٩

أبو نواس : ١٢١

نور الدين محمود : ٣، ٩، ١٠

(هـ)

هبنقة : ١٠٩، ١٢٣

هوميروس : ١٢١

(و)

ولادة : ١٠٦، ١٠٧، ١٠٨

ولبول : ٧٧

الوهرانى : ٦٤، ١١٢، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٣١، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦

(ى)

ياقوت : ٣٧، ٤٠، ٤٤

يوروپيد : ١٢٠

يوسف (عليه السلام) ١٠٧، ١٠٨

b. 12460 31 x
1.0138155295

تم بعون الله طبع كتاب « حكم قراقوش »
فى ١٧ من محرم سنة ١٣٦٤ هـ (١ من يناير
سنة ١٩٤٥ م)

مدير المطبعة
رستم الحلبي

AUC – LIBRARY

DATE DUE

A.U.C 15 FEB 1993	
A.U.C 2 – MAR 1993	
A.U.C 27 APR 1995	

PJ
7578
H26
1945

The American University in cairo
Library
January 27, 1993
0000027811 1